المرحلة الثانية عشرة: ٦٤٠ ـ ١٠٥٥
الموجة السامية ـ العربية: عرب الاسلام.

توحيد عرب الجزيرة وانتشارهم. أمبراطورية
الخلفاء العربية ـ الشرقية.
إحياء الثقافة السامية ـ الشرقية وتجديدها.

١ ـ إن عرب الحجاز تحت قيادة النبي محمدﷺ مؤسس الإسلام الذين انتشوا بديانة جديدة، سرعان ما أخذوا يحققون وحدة الجزيرة العربية، الدينية فضلاً عن السياسية (٦١٠ ـ ٦٣٢).

٢ ـ إن خلفاء المدينة، خلفاء النبيﷺ الأوائل، يعيدون الهللينية إلى ما وراء جبال طوروس ويبسطون امبراطوريتهم العربية ـ الإسلامية الفتية أو الخلافة من إيران الشرقية حتى القيروان (٦٣٢ ـ ٦٦١).

٣ ـ إن السياسة المتوسطية التي إنتهجتها الأمبراطورية العربية الجديدة إستوجبت نقل المركز

السياسي لهذه الأمبراطورية من المدينة إلى دمشق وإقامة امبراطورية الخلفاء الأمويين وهي أمبراطورية عربية - سورية بإتجاه المتوسط (٦٦١ - ٧٥٠).

٤ - إخفاق السياسة المتوسطية التي إتبعها الخلفاء الأمويون يؤدي إلى إنهيار سلالتهم ونقل العاصمة الى بغداد وإنشاء امبراطورية الخلفاء العباسيين وهي امبراطورية عربية - إيرانية في إتجاه آسيا القارية (٧٥٠ - ١٠٥٥).

٥ - إنطلاقاً من العام ١٠٥٥، أدى التوسع شبه المتزامن نحو الشرق الأدنى الذي قام به الأتراك السلاجقة القادمون من الشرق والصليبيون الفرنك القادمون من الغرب ناهيك بمطامع خلفاء مصر الفاطميين الذين احتلوا سورية منذ تأسيس خلافتهم (٩٦٩) إن كل ذلك أدى الى افتتاح حقبة جديدة من التطور في تاريخ عالم الشرق الأدنى وهذه الحقبة تمتد من تسلم الأتراك السلاجقة السلطة في العراق (١٠٥٥) حتى إحتلال الأتراك العثمانيين الشرق العربي (١٥١٧).

A. العرب قبل الاسلام:
التسمية، البلاد، العرق، الشعوب، اللغات، التاريخ، الحضارة، الدين.

I. جزيرة العرب

تناولنا في الجزء الأول من هذا المؤلف صحارى شمال الجزيرة العربية والبدو الذين يسكنون فيها منذ أزمنة ما قبل التاريخ.

وبمناسبة الدور الكبير الذي ستلعبه الجزيرة العربية الآن على مسرح التاريخ الكبير سوف نتطرق إلى الوسط الجغرافي والإثني واللغوي والإجتماعي والديني في وسط الجزيرة العربية وجنوبها وتطورمختلف شعوبها منذ الأصول وحتى الإسلام.

١ ـ تسميتا عربي وجزيرة العرب منذ الأصول

لقد رأينا في الجزء الثالث من هذا المؤلف أن تسمية عربي كانت تعني في الأصل «بدوي». ومن جهة أخرى فإن كلمة عريبي السامية التي كانت تعني في البداية «السهب» أو «الصحراء» كان يماثلها باللغة العربية القديمة كلمة «بادية» (سهب أو صحراء) ومنها جاءت كلمة «بدوي» أي ساكن السهب أو البادية.

وبحسب رواية أخرى فإن كلمة عريبي ناهيك بتسميتي عرب وأعراب اللتين أطلقهما أشوريو القرن التاسع قبل الميلاد كانتا تعنيان أصلاً «الغرب» و«غربيين». وقد رأينا أن الأكاديين والبابليين في الألفين الثاني والثالث قبل الميلاد كانوا يسمون المناطق الواقعة غرب نهر الفرات وسكانها «أمورو» (غرب) و«أموريين» (غربيين) (الجزء الأول). أما الأشوريون، وهم خلفاء البابليين، فاستعاضوا عن تسميتي أمورو وأموريين الأكاديتين بكلمات أشورية مماثلة وهي: عريبي وعرب وأعراب. وبما أن المنطقة الواقعة غرب الفرات مكونة في معظمها من أراضٍ صحراوية يعيش فيها البدو فصارت كلمة عريبي تعني الصحراء وكلمتا عرب وأعراب السكان الرحل فيها.

وقد سبق ورأينا أن المصريين القدماء من جهتهم، إستخدموا كلمة شاسو (بدوي) وهريوشا (العائشون على الرمال) للإشارة إلى الشعوب البدوية في صحارى شرق مصر وسيناء وفلسطين.

وهكذا فإن كلمة عربي لم يكن لها أصلاً المدلول الإثني أو اللغوي نفسه الذي اكتسبته فيما بعد. وإن هذه الكلمة الوصفية بشكل شبه حصري، لم تكن تعني في الألف الأول ق.م. سوى مجموعات إجتماعية لها نمط عيش خاص أو شعوب سامية بدوية هي آرامية أو كنعانية أو أمورية اللغة كانت تعيش تحت الخيام في سهوب وواحات صحارى بلاد ما بين النهرين ـ سورية ـ فلسطين ـ سيناء في مقابل الحضر الذين يسكنون في منازل مشيدة.

يعود أول نقش أشوري يأتي على ذكر إسم عرب إلى الملك شلمنصر الثالث الذي قاد العام ٨٥٤ حملة ضد ملك دمشق الأرامي وحلفائه. ومن بين هؤلاء الحلفاء ورد إسم «جنديبو العربي» وقد كان مضرب خيامه يقع إلى جنوب شرق دمشق.

وبحسب تلك المعطيات المكتوبة باللغة المسمارية فإن منطقة «عربيي» من القرن التاسع إلى القرن السابع ق.م. «كانت تشمل الجزء الواقع في أقصى شمال جزيرة العرب بين سورية وبلاد ما بين النهرين بما فيه منطقة تدمر ووادي سرحان: ويسكنه العرب البدو أو مزارعو الواحات . . . وكانت تقع واحة الوسط وهي الدومات (دومة الجندل) في منطقة الجوف»[1]، جنوب الصحراء السورية.

وفي أيام الفرس الأخمينيديين (٥٥٠ ـ ٣٣٣ق.م.) نظمت البلاد الداخلية الواقعة وراء غزة كمقاطعة إدارية تسمى: عربايا تشمل صحارى شمال الجزيرة العربية وواحاتها وتمتد من حدود مصر والبحر الأحمر جنوباً حتى الفرات والخليج العربي شمالاً.

وبدءاً من تاريخ الفتح اليوناني ـ المقدوني (٣٣٠ق.م.) فإن يونان مصر وسعوا إستخدام كلمة عربية لتشمل مجمل شبه الجزيرة العربية. وأخذت تسمية عربي تطلق مذّاك على سكان وسط الجزيرة العربية، ولكن هؤلاء السكان لم يتبنوا هذه التسمية إلا تدريجياً.

1 H. von Wissmann, «badw», *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle Edition, I, p. 908.

وبعد دمار مملكة تدمر العربية ـ الآرامية (حوالي ٢٧٣ب.م.)، والتي كانت لغتها آرامية، فإن الوثائق الرومانية تسمي بدو شبه الجزيرة العربية سرّازيني وهذا الإسم المشتق من كلمة شرقيين قد يكون إسم قبيلة كانت تسكن شرق جبل السروات شمال الحجاز.

وبدءاً من القرن الثاني ب.م. يبدو أن كلمة عربي إعتمدها سكان وسط الجزيرة العربية. وحوالي القرنين الرابع والخامس أصبحت اللغة العربية الأولية الشائعة في وسط الجزيرة العربية، والتي ستولد منها لغة القرآن الكريم، سائدة في انحاء شبه الجزيرة العربية كلها وباتتْ كلمة عربية تعني اللغة وعامياتها المختلفة.

إن كلمة عرب بمعنى «رحّل» وبعدما أصبحت تسمية شاملة وإثنية ـ لغوية الى حد ما، إستبدلت بعد ذلك بكلمة بدوي (ساكن البادية أي السهب) فيما سمي السكان المستقرون في الواحات وعلى تخوم الصحراء «بالحضر».

بيد أن السكان الحضر في الجنوب العربي (اليمن، حضرموت، الخ...)، وحتى سكان مكة ويثرب (المدينة لاحقا)، لم يطلقوا قبل الاسلام كلمة عربي على أنفسهم. فظلت كل مجموعة من مجموعاتهم السكانية تطلق على نفسها إسم قبيلتها أو موطنها الإقليمي فيما كان يشار الى البدو الرحل بكلمة أعراب.

في مطلع القرن الخامس من عهدنا «كان ملوك حِمَير الذين يحكمون جنوب الجزيرة العربية يسمون أنفسهم ملوك سبأ وريدان وحضرموت واليمانة (اليمن) وأعرابهم، أي البدو العائشين تحت الخيام في هذه المناطق»[2]. وفي الحجاز في القرن السابع فإن محمداً ﷺ «نفسه لم يستخدم كلمة عرب وأعراب إلّا تعريفاً بالبدو»[3].

خاتمة ـ وهكذا فإن الإسمين الساميين عرب أو أعراب اللذين إستخدمهما الأشوريون في مطلع الألف الأول ق.م. كانا يعنيان أصلاً أشخاصاً أو مجموعات بشرية تحيا حياة البداوة وتعيش تحت الخيام في السهوب والصحارى (عريبي) الواقعة غرب الفرات بعيداً عن أي مفهوم إثني أو لغوي أو ديني.

2 René Dussaud, *op. cit.*, p. 15.
3 H. von Wissmann, *op. cit.*, p. 910.

إن هـذه التسمية التي إطلقت في البـدايـة عـلى الشعـوب الـرحـل في الصحـراء السورية ـ الماينهريـة والتي كانت آراميـة اللغة ظلت تستخـدم للاشـارة إلى تلك الشعـوب بعد تعـريبها لغـوياً ثم إمتـدت تـدريجـاً بـدءاً من الألف الأول ق.م. لتشمل بدو وسط شبـه الجزيـرة العربيـة وحضر واحـاتها. بيـد أن حضر جنـوب الجزيرة العربية (اليمن، حضرموت، الخ . . .) وحتى حضر مكة المكرمـة ويثرب (المدينة) المنورة لم يستخدموا قبل الإسلام كلمة أعراب لتسمية أنفسهم.

وبعد إنتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية فإن إسم عرب المكلل بهالة المجد والعظمة خرج من نـطاقه الصحـراوي ليغطي منـطقة شـاسعة من البلدان الحضـريـة تمتـد من الخليـج العـربي وحتى المغـرب عـلى الاطلسي. وسيـظل يستخدم حتى أيامنا هذه للدلالة على الشعوب الحضريـة والبدويـة في هذا الجـزء الواسع من العالم.

٢ ـ البيئة الجغرافية.

أ ـ الشكل والتضاريس العامة.

إن شبـه الجزيـرة العربيـة (جزيـرة العرب) هي تلك الهضبـة الصحراويـة الشاسعة المحصورة كالزاوية بين افريقيا وآسيا. يـناهز طـول محيطهـا العام الستـة آلاف كيلومتر وتغطي مسـاحة تقـدر بثلاثـة ملايـين كيلومتر مـربع أي مـا يوازي تقـريباً مسـاحة البحـر الابيض المتـوسط والبحـر الاسـود معـاً. إن هـذه القـارة الصغيرة المستطيلة الشكـل هي أكثر أفـريقية منهـا آسيويـة وأقصى طول لهـا من الشمال الى الجنوب يبلغ ٢٠٠٠ كيلومتر. وأقصى عرض لهـا من الشرق إلى الغرب يناهـز ١٥٠٠ كيلومتر تقـريباً. إن شبـه الجزيـرة العربيـة التي يفصلها البحـر الأحمر عن افـريقيا والمحيط الهنـدي عن الهند والخليـج العربي عن إيـران تتصل بالقـارة الآسيويـة بجزئهـا الشمالي الـذي تدخـل حدوده غـير الثابتـة بين فرعي الهلال الخصيب: بـلاد ما بـين النهرين وسـورية. كـما أنها تتصل بـواسطة صحارى سيناء وبرزخ السويس بمصر الأفريقية.

إن شبه الجزيرة العربية برغم مـوقعها القـائم على الـطرق ما بـين القاريـة التي تصـل آسيا بـأوروبـا وأفريقيا إلا أنها بحكم كـونها أراضي جـافـة، رمليـة وقـاحلة، فهي تشكل حـاجزاً بـين مختلف العوالم المحيـطة بهـا كـما بـين المنـاطق المـأهولـة التي تجاورهـا بأكـثر مما تشكـل طريقـاً. باستثنـاء سوريـة وبلاد مـا بين النهـرين اللتـين تقعـان عـلى طـرفهـا الشمـالي وواحـات نجـد والحجـاز واليمن

وحضـرموت وعُمـان التي تزنـرها من الجنـوب فإن كـل ما تبقى من هـذه القارة الصغيرة يشكل كتلة من الصحارى المجدبة والمجهولة في معظمهـا وتتسم بالمنـاخ نفسه والأشكال الصحراوية نفسها التي تميز الصحـراء الأفريقيـة والتي هي أصلاً (الجزيرة العربية) جزء بالكاد منفصل عنها. ففي هذا القطاع الواسـع الذي هـو أحد أجف قطاعات العالم وأشدها حرارة تهطل أمـطار موسميـة فيضانيـة فتفيض الأودية بالسيول راسمة الطرق التي تسلكها القوافل.

وتغـطي المساحـات السهبية والصحـراوية معـظم مسـاحـة شبـه الجـزيـرة العـربية. وكـما أن مصر والقيـروان وأفريقيـا الشماليـة ليست شيئاً يـذكـر أمـام شساعة الصحراء الأفريقيـة هكذا فـإن سوريـة وبلاد مـا بين النهـرين والأطراف الجنـوبية ليست بـالشيء الذي يستحق الـذكر مسـاحةً أمـام شساعـة الصحارى العربية.

إن تضاريس شبه الجزيرة العربية إجمالاً تبدي إنحناء عامـاً نحو سـورية ـ بلاد ما بين النهرين والخليـج العربي. وإن تلك المنـطقة القـاحلة الشاسعـة ليست فيها بحيرة أو مجرى ماء هام منسوب ميـاهه ظـاهر ومستمـر. مياه السيـول تنزلق عـلى منحدرات الجبـال المجدبـة ثم تختفي بعد أن تتشـربها الأراضي الـرمليـة أو تتبخـر. وأما في الأجـزاء المرتفعـة من نجد واليمن وعمـان فتوجـد مجـاري ميـاه صغيرة دائمة تستخدم مياهها للري. الينابيـع نادرة غـير أنه يمكن الحصـول على الميـاه في الاجزاء المنخفضـة من الأودية عـلى عمق قليل. وتنعـدم الأمطار تمـامـاً طـوال تسعة أشهـر من السنة ثم تنهمـر إثرهـا بغـزارة في أوقـات تختلف بحسب المناطق وتكون فيضانية. وخلال الموسم الجـاف تكون الحـرارة محتملة في المناطق المرتفعة، لكنها تكون صعبـة الاحتمال في الاجـزاء المنخفضة. وأمـا الليالي ففي الغالب باردة.

فالموارد الطبيعية في جزيرة العـرب إذن زهيدة. وإن هـذه البلاد المحـرومة قد لعبت باستمرار دوراً هاماً بفضل المناطق الدائرية المحيـطة بها،وهـذا يعود إلى موقعها بين آسيا والعالم المتوسطي وهو مـوقع يعـطيها أهميـة تجاريـة وإستراتيجيـة كبرى. وأما بـالنسبة إلى قلب الجـزيرة حيث كـانت المجموعـات البدويـة تعمل غالباً في نقـل أو مواكبـة القوافـل فإن دورهـا الرئيسي يتمثـل في كونها مستـودعاً بشرياً يفـرغ باستمـرار محتواه نحـو المناطق الخصبـة في البلدان المجاورة. وتعـود الهجرات الدورية التي يقوم بها البدو نحو البلدان الحضريـة تارة إلى إزديـاد عدد سكان الصحراء وطوراً الى المجاعـات المتكررة التي كـانت تجعل البـدو عاجـزين

عن تـأمين غـذائهم الـذي هـو أصـلاً ضئيـل. إن هؤلاء البـدو، وقـد شـردهم الجوع، كانـوا يبحثون عن الملجـأ في البلدان التي حَبَتها الـطبيعة بـالخيرات إمـا عن طريق التسلل أو بالقوة.

وأما اليوم فقد وفرت منابع النفط في البلدان العـربية ثـروة هائلة غـير أنها ليست مـوزعة بشكـل عادل. ومن جهـة أخرى ففي بلد المـرور الكبير هـذا فإن قـوافل السيـارات والطائـرات حلت محل قـوافل الجمـال وصارت أنـابيب النفط تنقل الذهب الأسود من الجزء الشرقي حتى ساحل البحر المتوسط.

ب ـ التقسيمات الجغرافية.

إختلفت التقسيمـات الجغـرافيـة في جـزيـرة العـرب بحسب العصـور والأمكنة التي ننظر منها، وكلها إعتباطية بشكل عام.

ففي أيام البطالسة إعتمد اليـونان تقسيماً ثلاثي الأجـزاء إذا نظر إليـه من مصر بدا معقولاً. وقد قسم مجمل شبه الجزيرة العربية بمـوجبه الى ثـلاث مناطق كبيرة:

١ ـ العربية الصخرية في الشمال (صحارى سورية وفلسطين وسيناء).
٢ ـ العربية الصحراوية في الوسط (الحجاز ونجد والهضبة الوسطى).
٣ ـ العربية السعيدة في الجنوب (اليمن، حضرموت، وعُمان).

وقسم الجغـرافيون العـرب جـزيـرتهم أو شبـه الجـزيـرة إلى أربـع منـاطق طبيعيـة كبـرى. فمن جـانبي سلسلة جبـال السـروات التي تنـطلق من اليمن وتتجـه نحو صحـارى شرق الأردن سـائرة بمحاذاة البحر الأحمـر تقوم منـطقتـان كبيرتان متميـزتان تمتـد الواحـدة الى الشرق والثـانية الى الغـرب. والسد الجبـلي الذي يفصل بينهما هو الحجاز ومعناه الحاجز. المنطقة الغربية مؤلفة من أراضٍ منخفضة تحاذي البحر الأحمر (تهامة)، وأما المنطقـة الشرقيـة فمكونـة من الهضبة الـوسطى، وهي بسبب إرتفـاعها عن سـطح البحر(١٥٠٠ مـتر) سميت «نجد» وتعني الأرض المـرتفعة. وإلى شـرق «نجـد» فـالهضبـة التي تنحـدر نـزولاً نحـو الخليج العربي تشكل منطقـة يطلق عليهـا «العروض» حيث يـوجد بلدا اليمـامة والبحـرين. وأخيراً هنـاك منطقـة رابعة وهي جبليـة تقع عـلى شاطىء الجنـوب والجنوب الشرقي وتضم اليمن وحضرموت وعُمان.

فالتقسيمات المعتمدة من الجغرافيين العرب واليونان عموما تبدو طبيعية. إلا أنه بالإستناد إليها يمكننا إعتبار الجغرافيا والتاريخ يقسمان الجزيرة العربية إلى

ثلاث مناطق كبرى هي: الشمال والوسط والجنوب.

شمال الجزيرة العربية أو العربية الشمالية.- إن شمال الجزيرة العربية المحصور ما بين فرعي الهلال الخصيب (سورية وبلاد ما بين النهرين) والمؤلف من صحارى وسهوب وواحات تمتد من سيناء والعربية الصخرية حتى نهر الفرات، هو إمتداد للهضبة العربية الوسطى وهو غير منفصل عنها إلا بخط وهمي يمتد من شمال البحر الأحمر الى شمال الخليج العربي وقد رأينا أنه ومنذ فجر التاريخ كان تطور شعوب هذه المنطقة (اخلامو، خابيرو، آراميون، عبرانيون، نبطيون، تدمريون، لخميون، غسّاسنة، إلخ...) يرتبط إرتباطاً وثيقاً بتطور جيرانهم الحضر من سكان فلسطين - سورية - بلاد ما بين النهرين.

وسط الجزيرة العربية أو العربية الوسطى.- وتقع بين البحر الأحمر والخليج العربي والشمال العربي واليمن. وتمتد العربية الوسطى أو العربية الصحراوية المشكلة من هضبة مرتفعة واسعة تغطيها الرمال والبقايا البركانية لتشمل مساحات سهبية وصحراوية شاسعة. إن هذه الكتلة من الصحارى تضم بضع واحات داخلية غنية ذات مناخ صحي ومياه غزيرة نسبياً.

إن وسط الجزيرة العربية يضم الى الشرق هضبة وواحات نجد وهي قلب المملكة العربية السعودية، وعلى الخليج العربي منطقة الاحساء الرملية والمنخفضة والقليلة الخصب وذات المناخ الحار وغير الصحي. وإلى الغرب، وعلى محاذاة البحر الأحمر، هناك أراضي الحجاز المنخفضة التي تشكل سهلاً ساحلياً (تهامة) وهي ذات مناخ حار وغير صحي وهي قليلة الخصب وعرضها يناهز خمسين كيلومتراً وتمتد من اليمن وحتى العربية الصخرية. وتقوم في منطقة الحجاز مدينتا الاسلام المقدستان: مكة المكرمة والمدينة المنورة.

إن الشعوب البدوية التي تجوب وسط الجزيرة العربية والمنتشرة على هضبته الرملية الواسعة، المجدبة والصخرية قد حاولت دائماً الخروج منه والتغلغل بالحسنى أو بالقوة إلى البلدان الحضرية الشمالية(الهلال الخصيب) أو الجنوبية (اليمن).

جنوب الجزيرة العربية أو العربية الجنوبية.- إن جنوب الجزيرة الذي يضم مناطق جبلية وبحرية صالحة للزراعة والسكن مكون من اليمن أو «العربية السعيدة» كما سماها الأقدمون التي تقوم على الساحل الجنوبي من

البحر الاحمر ومن بلاد حضرموت على شاطىء المحيط الهندي وبلاد عُمان على بحر عُمان.

إن اليمن وحضرموت وعُمان التي يفصلها حاجز جبالها عن العربية الوسطى والصحراوية تتجه على التوالي نحو البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر عُمان وكذلك نحو العالمين الافريقي والأسيوي الواقعين وراء تلك البحار.

ج ـ غياب الوحدة الجغرافية

إذا نظرنا إلى شبه الجزيرة العربية على الخارطة لبدت إطاراً ممتازاً لتشكيل دولة كبيرة موحدة. غير أن الأوضاع الطبيعية والتضاريس الأرضية حكمت على تلك البلاد بإستمرار بالوقوع في الإقليمية والفردية وتالياً في التجزئة الإثنية والإجتماعية والسياسية. إن إختلاف المناخ والتضاريس يحدث في هذه المجموعة الواسعة تعارضاً ظاهراً بين مختلف المناطق. وثمة تعارض آخر يبرز بوضوح بين المناطق المروية جيداً حيث تنمو مجمعات حضرية زراعية ومدينية يتميز كل منها عن الآخر من جهة، والمناطق الصحراوية الشاسعة التي تفصل بينها وتعزلها عن بعضها بعضاً وتعيش فيها مجموعات من الشعوب البدوية من جهة أخرى. وهذان النوعان المتناقضان من البشر، الذين بوتقتهم أوضاع جغرافية مختلفة، يشكلان مجتمعين متميزين ومتناقضين. فالبدوي المحارب ينظر إلى الحضري المسالم على أنه فريسة مشروعة. والحضري المكدّ يعتبر البدوي نهاباً وعدواً طبيعياً له.

إن المساحات الصحراوية التي تجمع الأطراف المأهولة تشكل حاجزاً ضخماً من الأراضي الماحلة. إن الهضبة الوسطى هي محيط حقيقي من الرمال تمتلك أسوة بجارها السائل أي البحر المتوسط مجموعة جزر أو واحات داخلية وأشباه جزر أو مناطق حدودية وخصبة تقع في الشمال والجنوب. لكن في حين أن الجزر وأشباه الجزر المتوسطية متجهة بعضها نحو بعض وتتصل مع بعضها بعضاً بسهولة عن طريق البحر إلا أن الواحات العربية معزولة بالصحراء ومنطوية على نفسها. وأما المناطق الخصبة الواقعة على الأطراف وقد وجهتها الطبيعة في إتجاهات متناقضة فهي مدفوعة وكأنه بفعل قوة نابذة نحو العالم الخارجي. فالواجهة البحرية السورية تتطلع نحو المتوسط والغرب والواجهة المابينهرية تميل نحو إيران وآسيا وأما واجهة جنوب الجزيرة العربية فهي تهمل تقريباً مناطق الشمال لتتجه نحو أفريقيا والهند.

وهكذا فإن المناطق الواقعة على أطراف شبه الجزيرة العربية والمتجهة نحو الخارج أكثر من إتجاهها نحو الداخل، شاركت بإستمرار في حياة البلدان الأجنبية أكثر من مشاركتها في حياة بلدان الداخل العربي. وإن الصحارى والسهوب التي تغطي بشكل تام تقريباً شبه الجزيرة هذه، وتكوّن وسطها الجغرافي، إنما تجعل من هذه القارة الصغيرة قطراً يفتقر إلى الوحدة الذاتية.

II. عرب ما قبل الاسلام |العرب|.
العرق والشعوب واللغات

١ ـ العرق العربي

أ ـ عرب الإسلام سابع موجة توسع سامية ـ عربية

رأينا أن شبه الجزيرة العربية كانت المركز الذي انتشرت منه جميع الشعوب السامية المستقرة في الأزمنة القديمة، في بلاد بابل وأشور وسورية ولبنان وفلسطين. ومنذ الألف الرابع، كما رأينا، كانت موجات دورية من ذلك العرق الدائب الحركة، تتدفق على الهلال الخصيب حيث تركت خلال العصور الماضية وعلى التوالي: ١ ـ ما قبل الأكاديين. ٢ ـ الكنعانيين والفينيقيين والأموريين والأكاديين. ٣ ـ الأموريين ـ البابليين. ٤ ـ الآراميين والعبرانيين والكلدان. ٥ ـ الأنباط. ٦ ـ الغساسنة واللخميين. ناهيك بعناصر مجهولة الهوية تسللت إلى سورية ـ بلاد ما بين النهرين ومصر. ومنذ نهاية الألف الثالث، سبق وذكرنا، أن تحول الهلال الخصيب إلى السامية كان قد تحقق.

وفي النصف الأول من الألف الأول ق.م.، كما نعلم، كانت اللغات السامية العديدة في الهلال الخصيب والصحراء السورية ـ المابينهرية (الكنعانية، الأمورية، الأشورية ـ البابلية، الفينيقية، العبرانية، إلخ...) قد غابت لتحل محلها لغة وحيدة هي اللغة السامية ـ الآرامية. وبعد نحو ألف سنة من ذلك، كانت الشعوب البدوية في الصحراء السورية ـ المابينهرية وأطرافها قد صارت عربية على يد الغساسنة واللخميين القادمين من الهضبة العربية. وبعد الفتح العربي الإسلامي الذي يشكل موجة التوسع السامي ـ العربي السابعة تحول الهلال الخصيب وكذلك مصر وأفريقيا الشمالية إلى العربية.

ب ـ العرب، عرق لغوي.

كان سكان الجزيرة العربية عشية الفتح الإسلامي الذين يتكلمون لغات وعاميات محلية سامية الأصل ينتمون إلى الأسرة أو العرق السامي، وهو، على غرار العرق اللاتيني أو العرق الانكلو ـ سكسوني أو السلافي، عرق لغوي أصلاً. وأما من ناحية الطباع الجسدية والنفسية فإن ساميي الجزيرة العربية، كما الساميين الآراميين في الهلال الخصيب، يتميزون بعضهم عن البعض الآخر بفوارق عديدة وتبعاً للمناطق الجغرافية التي يقيمون فيها.

وقبل التطرق إلى الأصول الإثنية بالنسبة إلى عرب شبه الجزيرة العربية على ذمة الروايات التوراتية والعربية والأساطير المحلية وكتابات الأغارقة لا بد لنا أولاً من الإطلاع على ما يكشفه لنا علم أصول الأجناس البشرية وتطورها في هذا المضمار.

إن الصفاء العرقي عند ساميي الجزيرة العربية، وحتى أولئك الذين هم من داخل شبه الجزيرة العربية مبدأ لا يقره العلم. ومع أنهم يتقاربون، من حيث اللغة، إلا أنهم بعيدون كل البعد عن التقارب، من حيث أصولهم كأجناس بشرية. ومثلما يختلف العربي والسوري والمابينهري، وكلهم ساميون، عن بعضهم بعضاً من حيث صفاتهم الجسدية كذلك فإن عرب شمال شبه الجزيرة العربية ووسطه وجنوبه هم أبعد من أن يكونوا متجانسين إثنياً بل إنهم يضمون نماذج تنتمي إلى الأعراق الجسدية الأكثر تنوعاً مما يدل على وجود عوامل وراثة معقدة ونوعاً ما غريبة عن بعضها بعضاً.

«فعلى مدى الأزمنة التاريخية لم يتعرض سكان الجزيرة العربية إلا نادراً لغزوات أجنبية كانت محصورة دائماً تقريباً في الأطراف وقد كانت آثار تلك الغزوات ضئيلة في حين كانت الأوضاع المعيشية صعبة وقاسية جداً إلى حد أن حضارة شبه الجزيرة العربية تظهر متجانسة بشكل فريد. . . ولذا فليس بغريب ان يكتفي مؤلفونا، علماء التاريخ منهم واللغة بالتسليم، من غير تفحص، بالصفاء العرقي عند شعب عربي ـ سامي.

ومع ذلك، ومن زاوية علم أصول الأجناس البشرية، تظهر في الشعوب العربية أنواع عرقية متميزة عدة. إن معطياتها، بما فيها قياسات الرأس والجمجمة بين القديمين والمحدثين، تظهر فروقات جلية داخل شبه الجزيرة العربية وتبدي أيضاً شبه بعض المجموعات لأعراق من خارج الجزيرة العربية

وهي دلالة على وجود أصول مختلفة. قد يبدو شبه أكيد أن رواية عدنان وقحطان العربية هي لمجرد حفظ ذكرى جدين مختلفين عرقياً...

هناك ثلاثة أعراق أسهمت بشكل واضح في تكوين الدم العربي هي: الحامي الأسود في الجنوب، والأرمنازي المستدير الرأس والمتوسطي ذو الرأس الضيق. إن الخيال الشعبي الغربي... يقدر أن العربي ينتمي إلى نموذج وسطي يشبه نوعاً من يهودي وسيم أي له أنف أقنى وشعر أسود متموج... لكن تلك الأوصاف تنطبق على الأرمنازي الذي كانت على الأرجح بيئة تطوره في آسيا الصغرى. ويبدو أن ملوك حِمير في جنوب الجزيرة العربية وخلال القرن الرابع كانوا من هذا العرق الأرمنازي إذا تفحصناهم من صور عملاتهم...

ومن جهة أخرى فإن أبناء معظم قبائل الشمال العربية ليس لهم أبداً رأس مستدير أو أنف معقوف كالأرمنازيين بل هم متوسطيون يتميزون بذلك من جمجمتهم الطويلة والضيقة. وتدل بقايا هياكل عظمية عديدة تم إستخراجها وفحصها على أن ذلك النموذج كان نوعاً عربياً شائعاً وربما الأكثر شيوعاً في العصور الأولى لعهدنا.

وبمثل هذا التنوع لا ريب كان سكان جنوب غرب شبه الجزيرة العربية الأولون. السكان الأصليون منهم هم من السُمر فيهم شبه واضح مع الأحباش... السبأيون والمينيون وسواهم الذين زالوا قبل هبة الحميريين من المحتمل أن يكونوا ينتمون جزئياً إلى تلك الآرومة القديمة.

فكتاباتهم تعتمد حروفاً تعتبر الحروف الحبشية تطوراً مباشراً لها. وما تبقى من عامياتهم في الجنوب العربي فتتكلمها فقط القبائل الحامية برغم أن تلك اللغات عربت بشكل واسع اليوم غير أنها ما تزال غير مفهومة بالنسبة إلى عرب الشمال»[4].

فعرب شبه الجزيرة العربية، في ضوء علم الأجناس البشرية، هم إذن نتاج مركب أو مزيج مستقر تتشكل عناصره المكونة من متوسطيين متحدرين من سكان أصليين في مرحلة ما قبل التاريخ، ومن حاميين أفارقة وأرمنازيين من آسيا الصغرى. إن عرب الجزيرة مدينون لهذا الأمتزاج وبخاصة لتنوع

4 Bertram Thomas, *Les Arabes*, p. 253, 254 et 255.

المناطق التي يسكنونها بالنماذج الجسدية المتفرقة التي تميز عرقهم.

ج ـ العرق العربي وتأثير البيئة الجغرافية

وبمناسبة الحديث عن التوسع العسكري والسكاني (الديموغرافي) الذي حققه عرب الجزيرة العربية في مختلف البلدان التي إعتمدت لغتهم ودينهم وعدداً كبيراً من عاداتهم فمن المفيد التذكير هنا ببعض الأسباب العامة التي هي سنن ثابتة أو حقائق تاريخية دائمة سبق وعرضناها في المقدمة العامة لهذا المؤلف وأوجزناها آنفاً.

إن العرق الصافي من الناحية الجسدية لا وجود له عملياً على الإطلاق. فممثلوه زالوا منذ عصور ما قبل التاريخ إثر الهجرات والإختلاطات المتكررة بالشعوب الأخرى. وإن الصفات الجسدية والنفسية يشترك في بوتقتها عامل الوراثة والبيئة الطبيعية. وهذه البيئة تنجم في الوقت نفسه عن المناخ وطبيعة الأرض وشكلها الخارجي فضلاً عن موقعها الجغرافي. إن كل تلك العوامل تؤثر معاً على نشاط البشر بتأثيرها على أوضاعهم المعيشية وإتجاه نشاطهم.

وينجم عن ذلك أن إقامة مجموعة إجتماعية ما لفترة طويلة في الوسط الطبيعي نفسه تطبع أفراد تلك الجماعة بعدد من الصفات المشتركة، والطبائع الجسدية والنفسية الخاصة التي تقوم الوراثة بنقلها. إنها تلك الصفات الغريزية والدائمة نسبياً والتي تكوّن نموذج العرق وتميز شعباً ما عن غيره وتؤثر بدورها تأثيراً حاسماً على مفاهيمه الإجتماعية والدينية والفنية كما على نشاطه السياسي والإقتصادي. إنها الصفات النفسية والخلقية، أكثر من الصفات الجسدية، هي ما يميز المجموعات الإجتماعية أو الشعوب. فهذه الشعوب ليست في النتيجة سوى مزائج إثنية «مستقرة» بفعل الوسط الجغرافي.

من جهة أخرى عندما تطرأ أسباب عارضة في إطار المسكن نفسه الذي يتمتع بظروف طبيعية ثابتة نسبياً تغير الحياة والتطور التاريخي والتنظيم السياسي والإجتماعي في مجتمع ما وتبدل عادات أسلافه ومؤسساته، فهذا التغيير هو من حيث المبدأ سطحي ولا يؤثر عامة إلا في الطباع الثانوية والإجتماعية (كاللغة والدين وطريقة العيش، إلخ...) والتي هي أصلاً متغيرة. وأما الطباع الغريزية أي روحية الشعب، في المقابل، فلا تتغير.

إن هذا التغيير الخارجي عندما يعقب هجرة كبيرة من عناصر عرقية

دخيلة قد يؤثر في كثير من الأحيان، وذلك بفعل الإمتزاجات، على حيوية الشعب بنفحه نسمة الشباب في الدم وليس في العرق. ولكن هذا التغيير هو موقت أصلاً. فالعلم الحديث يعزو فعله إلى مدى متوسط حدّه ثلاثة أجيال أي ما يقارب المائة سنة. وبعد هذه المدة فإن الطبع القومي الذي بوتقه الوسط الطبيعي يستعيد تفوقه ويطبع من جديد بطابعه الغزاة الأجانب كما يطبع النتاجات العرقية الناجمة عن إختلاطهم بالسكان الأصليين. وإذا كان الشعب الذي إستعاد طباعه الأصلية قد إحتفظ ببعض الطباع الثانوية التي إكتسبها نتيجة الإحتكاك الذي تعرض له: كالدين وممارسته واللغة وطرائق العيش إلا أن الطباع الغريزية أو الأساسية كالشعور الديني والحياة النفسية والعاطفية والذهنية فضلاً عن عقلية الشعب تظل هي هي كما كانت في أسلافه السكان الأصليين.

تلك كانت نتيجة المزائج الإثنية التي رأيناها تحصل مرات متكررة في بلدان الشرق الأدنى طوال المراحل التاريخية التي عرضنا تطورها. وتلك ستكون أيضاً نتيجة التغييرات السياسية والدينية والإجتماعية التي تلت غزو العرب في مختلف بلدان آسيا الأمامية ومصر وأفريقيا الشمالية. فبعد قرن أو قرنين من الفتح العربي الإسلامي ستستعيد كل من تلك البلدان، المحتلة التي تعربت وأسلمت، تدريجياً طباعها القومية وفرديتها وشخصيتها المميزة في وسط العالم العربي والإسلامي.

ففضلاً عن الروابط اللغوية فإن القرابة المسلَّم بها بين مختلف المجموعات العربية في شبه الجزيرة ناجمة عن طباع عامة مشتركة كيفتها ظروف الحياة المتشابهة والتي هي نفسها محددة بأحوال طبيعية مشتركة. لكن تنوع التضاريس والمناخ في بلد شاسع المساحة يطبع مختلف المجموعات البشرية التي تسكنه بطباع نفسية وخلقية جد مختلفة.

بالاضافة إلى الفوارق الناجمة عن الجغرافية الاقليمية التي تميز عرب الشمال عن عرب الوسط أو عرب الجنوب فإن المجموعات الجغرافية المتنوعة في جزيرة العرب إنقسمت دائماً، كما هي اليوم، إلى نموذجين رئيسيين كبيرين كيفت كلاً منهما أوضاع معيشية مختلفة: البدو الذين يحتلون المساحات الصحراوية الواسعة، والحضر الذين يتجمعون في الواحات ويتعاطون الزراعة والتجارة.

«إن هذا التمييز هو ضروري للغاية... فللبدو نمط حياة وعادات

وتقاليد لا تزال هي هي اليوم كما في الأمس قبل آلاف السنين. . . إنهم، كما كانوا أيام التوراة، ما يزالون يعيشون في قبائل دأبها الترحال كلما ضاقت أمام قطعانها أسباب الكلأ وإنعدمت مصادر المياه حيث كانوا يضربون خيامهم موقتاً. وأما العربي الحضري، فهو على العكس، يتغير وفقاً للأمكنة والشعوب المتنوعة جداً التي يحتك بها . . . إن التمييز العملي الوحيد الذي يمكننا أن نجريه حالياً بين العرب خارج إطار التمييز الأساسي الذي تطرقنا إليه آنفاً هو التمييز المعتمد على البلد الذي يعيشون فيه. . . إن عربي المناطق الوسطى من جزيرة العرب هو الذي، على ما يبدو، برغم إختلاطه المتكرر بالزنوج بقي الأشد شبهاً بأجداده القدماء وبخاصة متى تفحصناه في حالة البداوة. . . فهؤلاء البدو. . . ظلوا كما يمكننا تصورهم من خلال الروايات التوراتية أو وصف المؤرخ هيرودوت . . . فالعرب البدو عاشوا دائماً، أسوة بما هم عليه الآن، متجمعين في قبائل صغيرة يتزعمها رئيس يدعى شيخاً يكون عادة أحد زعماء الأسر في القبيلة. وأما الشغلان الشاغلان عند البدو فالحرب وتربية القطعان. . . والصفات الحميدة أو العيوب التي يتصف بها هؤلاء العرب البدو هي بالطبع الصفات والعيوب التي تتولد عن أوضاعهم المعيشية. . . فبفضل تلك الغرائز المتأصلة فيهم من حب للحرب والسلب صار العرب البدو محاربين ممتازين في أيام خلفاء النبي محمدﷺ ونجحوا في غزو العالم بسرعة.

في الأوضاع الجديدة التي عاشوا فيها بقيت غرائزهم الأولية ثابتة لأن طبع شعب ما لايتغير أبداً، لكن هذه الغرائز إتخذت أشكالاً جديدة: فحب السلب بات حب الفتوحات. . . ولكن بالطبع لم يظهر بينهم اولئك العلماء أو الفنانون الذين أعطوا بريقاً متألقاً لحضارة أتباع النبيﷺ . . . وإذا كانت الصفات النفسية كما نعتقد تكفي لإرساء تباينات عميقة بين الناس فيمكننا القول إن العربي الحضري والعربي البدوي يشكلان عرقين يفصل بينهما حقيقة غور بعيد القرار»[٥].

٢ ـ أقدم شعوب جزيرة العرب

لم يكن هناك بلاد العرب بالمعنى الصحيح إلا مذ تنظمت كل القبائل العربية في شبه الجزيرة وتجمعت في دولة على أرض الجزيرة العربية أي بدءاً من النبي محمدﷺ. غير أنه ولفهم أفضل للتطور التاريخي عند عرب الجزيرة العربية

5 G. Lebon, *La Civilisation des Arabes*, p. 36-44.

بعد ظهور النبيﷺ لا بد من العودة إلى أبعد ما أمكن زمنياً لنستعرض بإقتضاب الشعوب التي تعاقبت سواء في الشمال أو الوسط أو الجنوب العربي منذ أقدم العصور التي بقيت منها آثار.

مما لا ريب فيه ان جزيرة العرب كانت مأهولة في عصر لم تكن أرضها حصى ورملاً أو مناخها لاهباً بعد. فقد تأثرت تلك الجزيرة، كما ذكرنا، بالتغييرات التي أصابت الصحراء الافريقية التي كانت مأهولة في وقت كانت فيها مجاري مياه عديدة، وبالتغييرات التي طرأت على بلاد ما بين النهرين التي تعرضت في الأزمنة التاريخية السحيقة لطوفانات متكررة. ومنذ الألف الرابع، كما نعلم، فإن جزيرة العرب كانت قد خضعت لحالة من التجفف تميز مناخها الحالي وهذا التجفف على تصاعد منذ ذلك الحين. وإذا ما أضيفت تلك الأوضاع الطبيعية إلى شكل الأرض الذي يعزل الجزيرة العربية من جوانبها الثلاثة نرى أنها جعلت من تلك الجزيرة مساحة جغرافية قادرة أن تدمغ الشعوب التي سكنتها بطبائع خاصة وأن تؤدي إلى تكوين عرق أو مجموعة بشرية خاصة.

أ ـ العرب البائدون والعرب الباقون أو العرب الأصفياء والعرب المستعربون

ويسلم أبو الفداء وسواه من المؤرخين العرب بوجود ثلاث طبقات من السكان الذين تعاقبوا على السكن في الجزيرة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام وهم: ١ ـ العرب البائدون. ٢ ـ العرب الباقون أو الأصفياء عرقياً. ٣ ـ العرب المستعربون.

العرب البائدون.ـ وبحسب الروايات العربية المسلم بها عادة كان يأهل جزيرة العرب في البدء عرق أولي من السكان الأصليين قد يكون معظمهم، والمعروفون بالعرب البائدين قد تركوا البلاد في عصور سحيقة في حين بقي فيها العرب الباقون.

وقد خلف هؤلاء العرب البائدين، الذين سنأتي على ذكرهم لاحقاً مجموعتان عرقيتان كبيرتان يتحدر كل منهما من بطل أسطوري وهما قحطان وهو جد العرب الباقين وعدنان وهو جد العرب المستعربين أو المتعربين.

العرب الباقون أو الأصفياء عرقياً.ـ وثمة رأي يطرح عامة يعزو إلى قحطان جد عرب الجنوب نسابة ترجع إلى سام بن نوح.

وأما سليلو قحطان ممن يشكلون جزءاً من «العرب الباقين» فيطلق عليهم عامة إسم العرب العاربة الأصفياء أو الأنقياء عرقياً وهم قبائل اليمن التي موطنها جنوب الجزيرة العربية (اليمن وحضرموت، إلخ . .)

وإن سبأ هو إبن حفيد قحطان ووالد حِمَير. ويُعتبر السبأيون والمينيون وسواهم من شعوب دول الجنوب القديمة سليلي حِمير.

العرب المتعربون. ـ هم سليلو عدنان الذي يعود بالنسب إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل وزوجته هاجر، سموا بالعرب المتعربين أو المستعربين. وهؤلاء هم عرب وسط الجزيرة (الحجاز والهضبة العربية) الذين جاء أجدادهم من شمال شبه الجزيرة العربية. إن سليلي عدنان سوف يعطون إسمهم إلى العديد من القبائل العربية، منهم نزار حفيد عدنان الذي ولد مدار، ومدار الذي ولد كنانة الذي كانت قريش قبيلة النبيﷺ تشكل فرعاً منها.

ولا شيء من المعطيات الحالية التي بين أيدينا يسمح بتأكيد تلك الروايات أو نفيها. غير أن مختلف الأنواع العرقية التي أثبتها علم الأجناس البشرية في جزيرة العرب وهجرة ساميي الجزيرة نحو البلدان الحضرية وأخيراً الآثار البابلية والحبشية في اللغات والمعتقدات الدينية في اليمن القديمة تسمح لنا أن نستخلص أنه من الممكن جداً أن يكون التصنيف المبين آنفاً صحيحاً في خطوطه الكبرى.

هكذا وعلى ذمة الروايات التي يسلم بها المؤرخون العرب فإن قحطاناً جد عرب الجنوب هو أقرب بكثير إلى العربي الأصيل من عدنان جد عرب الحجاز. ومن جهة أخرى فإن عرب الجنوب، وبخاصة اليمن، إحتفظوا وحتى الإسلام بمركز الصدارة في حضارة جزيرة العرب القديمة وتاريخها. وبفضل النبي محمدﷺ الذي ينتسب إلى قبيلة قريش العدنانية قفز الحجاز ولغته بعد ظهور الإسلام إلى الواجهة في الجزيرة العربية.

ب ـ العرب البائدون

إن العرب البائدين يضمون مجموع القبائل السامية ـ العربية التي هاجرت على التوالي في عصور قديمة جداً من شبه الجزيرة العربية نحو بلدان الشمال الحضرية. لقد سبق ورأينا تلك الشعوب خلال الألف الرابع والثالث والثاني ق.م. وتحت أسماء الأكاديين والكنعانيين والفينيقيين والأموريين والآراميين والعبرانيين والأنباط إلخ. . . تتغلغل إلى مناطق الهلال

الخصيب وتندمج مع السكان الأصليين الحضر في بابل وفلسطين ولبنان وسورية وكلدة وشرق الأردن وبلاد تدمر وتستقر وسط شعوب تلك البلدان.

وبحسب الأساطير العربية التي حفظت في العهد الإسلامي فأهم تلك القبائل (البائدة) هي: عاد وثمود وإيرام والعماليق وطسم وجادس وأميم وجرهوم وحضرموت إلخ... وهذه القبائل المختلفة تقسم إلى مجموعتين رئيسيتين تتحدران من ولديّ سام وهما لوز وآرام. وقد يكون لوز جد العماليق في حين أن آرام هو جد جميع القبائل العربية الأخرى البائدة التي ذكرناها.

العماليق. ـ إن العماليق أو العمالقة وهو الاسم الذي تطلقه عليهم التوراة، هم سلالة لوز بن سام على حد قول العرب أو سلالة عيسو بن إسحق وأخ يعقوب أو إسرائيل على حد قول التوراة وهم عريقو القدم. فقد كانوا يحتلون منطقة واسعة تشمل شمال الحجاز والعربية الصخرية وشبه جزيرة سيناء وجنوب منطقة شرق الأردن التي كانت جد مأهولة ومزدهرة حتى العام ٢٢٠٠ ق.م. وقد واجه إسرائيليو موسى العماليق في شبه جزيرة سيناء وشرق البحر الميت. وكان شاول وداود على حرب مستمرة معهم وتسميهم التوراة «مبدأ الأمم».

ومن تلك المنطقة من الجزيرة العربية المأهولة بالعماليق ربما انطلق الكنعانيون ـ الفينيقيون حوالي العام ٢٩٠٠ نحو سواحل فلسطين ولبنان والأموريون نحو سهول سورية، والأكاديون نحو الفرات الأوسط. ومن تلك المنطقة العربية قد يكون هاجر أيضاً حوالي العام ٢٤٠٠ ساميون آخرون هم الأموريون نحو بلدي الفرات والنيل.

وقد رأينا بالفعل كيف أنه، وخلال القرون الأخيرة من الألف الثالث، ظهرت في آسيا الأمامية تحركات شعوب واسعة أدت إلى غزو بلاد ما بين النهرين ومصر على يد ساميي أمورو (سورية) أو الأموريين.

إن هؤلاء الأموريين، الذين قد يكونون من العماليق، دعموا الساميين المابينهريين المحليين أو الأكاديين وأسسوا حوالي العام ٢١٠٥ أول سلالة ملكية في بابل والتي يعتبر حمورابي (حوالي ٢٠٠٠) أشهر ممثليها.

إن أسماء ملوك تلك السلالة، وكما رأينا، تتقارب نوعاً ما مع أسماء عرب وسط الجزيرة العربية الأولين. وإن سامو أبي، مؤسس السلالة تقال

بـالعربيـة: أبي سام. كـما أن لغـة مملكـة حمـورابي كـانت من بـين كـل اللغـات السامية الأكثر تشابهاً مع اللغة العربية المقبلة.

غـير أنه لا بـد من التذكـير هنا بـأن لغة العـرب الأولين في تلك العصـور السحيقـة لم تكن قد صـارت بعد لغـة القـرآن والتي يفصلهـا عنهـا نحـو سبعـة وعشرين قرناً.

إنـه وحوالي العـام ٢٤٠٠ أدت هجـرات الشعـوب تلك نفسهـا إلى دفـع جماعات آسيوية نحو مصر. وقد أظهرت الإكتشافات الحـديثة وجـود عنصر هـام من الشعوب السامية، بينها حضر وبدو، تسللوا إلى الدلتا. وخلال تلك الفترة من الفوضى توصل فرعونان إلى العـرش قد يكـونان من أصـل سامي وربمـا من العماليق ويحملان إسمين من أسماء العرب الأولين وهما: خندي وطلال.

إن بدو أو عماليق العربية الصخرية وسيناء، يدعمهم أخوة أو أنسباء لهم من الحضر والبدو الذين جاؤ وا من بلاد كنعان وفينيقيا وسورية، هم أيضاً الذين غزوا مصر حوالي العام ١٧٠٠ تحت إسم الهكسوس وأخضعوا ذلك البلد قرابة القرن إلى سلطتهم.

وأخيـراً فمن بلاد العمـاليق هـاجـر الأنبـاط (حـوالي العـام ٥٠٠ق.م.) والغساسنة واللخميون (حوالي العـام ٢٠٠ب.م.) وإستقروا جميعاً في صحارى فلسطين ـ سورية ـ بلاد ما بين النهرين وعلى التخوم المزروعة في تلك المنطقة الواسعة.

الآراميـون ـ وبعد العمـاليق سلالـة لوز فـإن المجموعـة العـربيـة الثـانيـة البائدة هي مجموعة أبناء عمومتهم الأراميين سلالـة آرام بن سام. وقـد رأيناهم تحت إسم أخلامو أو «الأراميين الرحل»، ومنذ العـام ٢٠٠٠ يرتحلون في الصحارى السورية ـ المابينهرية ويخربـون بـلاد الهلال الخصيب المـزروعة. وقـد يكـون مركـز إنطلاقهم عـلى الأرجح بـلاد نجد والتي يعني إسمهـا: المـرتفـع أو العالي وقد يكون منها جـاء إسم الأراميين أي أهـل البلاد المـرتفعة أو الجبليـين. ثم إنتقلوا إلى بلاد ما بين النهرين السفلى حيث أقاموا مركـز إنتشار إنـطلقوا منـه نحو الشمال والغرب وإستقروا في نهايـة المطاف وبعـد قرون عـديدة في بـلاد ما بـين النهـرين (كلدان أو بـابليـون جـدد) وفي سـوريـة (آراميـون) وفي فلسـطين (عبرانيون وإسرائيليون).

وإن إبـراهيم، مواطن أور في بـلاد سومـر، وعـلى رأس قبيلة صغيـرة من مجموعة الخـابيرو التي كـانت تشكل جـزءاً من الموجـة الآرامية، مضى كـما رأينا نحو بلاد كنعان. إن قبيلة الإبراهيميين تلك والتي سيخرج منها العبرانيون والإسرائيليـون خـرج منهـا أيضـاً عن طـريق إسمـاعيـل بن إبـراهيم وهـاجـر، الإسماعيليون أو عدنانيو الحجاز أجداد عرب الإسلام المقبلون.

وبعد إستقرار الآراميين في بلاد ما بين النهرين وسورية حيث أسسوا ممالك صغيـرة عديـدة فإن لغتهم محت تـدريجياً مختلف اللغـات الساميـة في تلك البلدان وصـارت، كـما رأينـا وبـدءاً من الألف الأول ق.م.، اللغـة المشتـركـة لبلدان الهـلال الخصيب. إن الإسرائيليين أنفسهم، الذين يبـدو أنهم كانـوا قـد تبنوا لغة فلسطين الكنعانية والتي تعتبر العبرانية فـرعاً منهـا، تخلوا في النهايـة هم أيضـاً عنها وإعتمـدوا اللغة الآراميـة. ونحن نعرف أن السيـد المسيح وتـلاميذه كانوا يتكلمون اللغة الآرامية.

وينسب العـرب إلى الآراميين سـائر القبـائل العـربية البـائدة التي أشـرنـا إليها آنفاً مثل عاد وثمود وطسم وجادس وأميم وجرهوم وحضـرموت إلـخ . . . وكما هاجر العرب البائدون نحو الشمال في مراحل متلاحقة وأزمنة متفاوتة كذلك عـاد قسم منهم فيما بعـد، في عصور مختلفـة ولأسباب شتى، لـلإقامـة في بلد جـدودهم، وراحوا بعـد غياب قـرون وهم يتكلمون لغـات ساميـة تغيـرت بفعل إحتكاكهـا مع شعـوب شماليـة وتاليـاً مختلفة عن لغـات الوسط والجنـوب التي كـانت هي بدورهـا قد تـطورت خلال تلك الفتـرة. وبعد إعتمـادهم لغـة هؤلاء أطلق عليهم السكان الأصليون: العرب المتعربين.

٣ ـ لغات جزيرة العرب في حقبة ما قبل الإسلام

قبل الإسلام ومنذ الأزمنة المغرقة في القدم كان في جزيرة العرب لغات ولهجات عدة تنتمي كلّها، كما نعرف، إلى أسرة اللغات السامية التي تنتمي بدورها إلى أسرة اللغات الحامية ـ السامية الأوسع والتي تضم فيما تضم اللغة المصرية القديمة.

إن اللغـات المسماة سـاميـة والتي بـات العـديـد منهـا اليـوم لغـات ميتـة (كالأشورية ـ البابلية والكنعانية أو الفينيقية والأمورية والآراميـة إلخ. . .) هي ممثلة اليـوم باللغـات العـربيـة والحبشيـة والعبـرانيـة. وبحسب بعض علماء اللغـة كبروكلمـان فإن تلك اللغـات الساميـة تتحـدر من لغـة مشتـركـة زائلة.

وككل اللغات الأم فإن تلك اللغة السامية الأولية تجزأت قبل إنقراضها إلى لغات وعاميات عدة حلت محلها تدريجياً.

ويقول ب. توماس: «إن جزيرة العرب القديمة كان فيها لغات عديدة تنتمي كلها إلى عائلة سامية واحدة برغم أنها كانت تنطق بها شعوب يبدو أنها كانت ذات أصول عرقية مختلفة... إن تلك اللغات العربية المتنوعة لم تكن مجرد لغات محلية. فقد كان يوجد بينها إختلافات شبيهة بتلك التي تفرق بين اللغات الرومانية. وقد كان يوجد حتماً لغة محكية سامية مولدة مطابقة للغة اللاتينية أم اللغات الرومانية الحديثة»[6].

أ ـ في وسط الجزيرة العربية وشمالها

قبل إنتشار الإسلام كانت المجموعة اللغوية العربية تغطي وسط جزيرة العرب وشمالها مشتملة على مناطق الحجاز ونجد والهضبة العربية الوسطى والصحارى السورية ـ العربية. ففي تلك المنطقة الواسعة كانت اللغات واللهجات العربية التي سنتطرق إليها فيما بعد عديدة ومتنوعة.

وداخل أسرة اللغات السامية فإن المجموعة اللغوية العربية «تحتل الوسط بين اللغة السامية الجنوبية (جنوب الجزيرة العربية وأثيوبيا) وسامية المنطقة الشمالية الغربية (عبرية، أوغاريتية، آرامية) ولها قواسم مشتركة مع هاتين المجموعتين... من جهة أخرى فالعربية تشاطر اللغة السامية المستعملة في شمال ـ غرب الجزيرة بعض القواسم غير الموجودة في سامية جنوب الجزيرة العربية والحبشية أو الأثيوبية»[7].

ب ـ في جنوب الجزيرة العربية

وفي الجنوب العربي أو العربية السعيدة (اليمن، حضرموت إلخ...) تظهر النقوش السبئية والحميرية في يمن الألف الأول ق.م. مجموعات حضرية ومدينية تكتب على الخشب والحجر. ومن تلك المجموعات المنظمة في إمارات ذات سلالات تعود في القدم إلى العام ١٠٠٠ ق.م. كان من أشهرها السبئيون وخلفاؤهم الحميريون.

إن النقوش السبئية والحميرية تظهر لنا أيضاً أن لغة جنوب الجزيرة هي

6 Bertram Thomas, *Les Arabes*, p. 22.
7 C. Rabin, «Arabiyya», *Encyclopédie de l'Islâm*, Nouvelle Edition, I. p. 580.

سامية وتقف في الوسط بين عربية الحجاز والحبشية. «خلافا لرأي واسع الإنتشار، فإن لغة الجنوب القديمة تشكل مجموعة لغوية مختلفة تماماً عن العربية. . . غير أنه يوجد بين لغة جنوب الجزيرة واللغة الحبشية بعض ميزات مشتركة مع الأكادية (الأشورية ـ البابلية) لا تشاركها فيها اللغة العربية»[8].

في النقوش السبئية والحميرية المشار إليها آنفاً «فالكلمات مفصولة بعضها عن بعض بخط عمودي. ولم يلاحظ أي تغيير في شكل الحروف منذ الكتابات القديمة حتى أحدثها تاريخاً. فالأبجدية الحميرية قريبة جداً من الأبجدية الحبشية. . . إذا درسنا الأبجدية الحميرية دراسة دقيقة نجد أنها مشتقة من الأبجدية الفينيقية وإن بعض حروفها يظهر شبهاً غريباً بأقدم لغة فينيقية»[9]. وقد رأينا أنه، إذا لم تكن الأبجدية السبئية متحدرة من الأبجدية الفينيقية فإن بينهما صفات مشتركة تؤكد وجود قرابة بينهما أصلاً.

قبل الإسلام كانت لغات جنوب الجزيرة العربية، والتي هي لغات حضارة مدينية وتجارية قديمة وهيمنة إقتصادية وسياسية كانت تغطي غالباً مجمل شبه الجزيرة، تتمتع بشهرة تفوق شهرة اللغة العربية التي كان شكلها الأصح شائعاً، ليس في التجمعات الحضرية كمكة أو يثرب (المدينة)، بل بين البدو. لذا، فبرغم أن اللغات العربية المتداولة في وسط الجزيرة، كانت منذ ما قبل الاسلام، تعرف في الجنوب إلا أن الاسلام ولغته وجدا مشقة كبرى في التأصل في اليمن وسائر مناطق جنوب الجزيرة.

ج ـ الخلاصة

إن اللغات واللهجات السامية العربية المختلفة التي كانت منتشرة في مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، كان كل منها يميل لأن يصبح لغة قومية أو قبلية متفوقة وأن يفرض نفسه على اللغات العربية الأخرى. لكن ظروفاً خاصة حملت إحدى هذه اللغات المحلية لأن تصبح لغة قومية وتنزل اللغات الأخرى الى مستوى اللهجات الإقليمية. لذا «أمكن القول إن لغة ما هي لهجة محلية قيض لها النجاح».

8 C. Rabin, *op cit., p. 579.*
9 G. Salomon. «Yémen», *La Grande Encyclopédie,* 31, p. 1272.

في إيطاليا القديمة ومن بين لغات عديدة مسماة إيطاليانية مولودة من لغة هندو ـ أوروبية بائدة كانت اللاتينية في البداية لغة اللاتيوم أي السهل المحيط بروما. ومع نمو القوة الرومانية صارت اللغة اللاتينية المحلية هي اللغة الأدبية والرسمية في إيطاليا. لكن ومع توسع الأمبراطورية الرومانية فإن هذه اللاتينية الكلاسيكية تبدلت بعد إحتكاكها باللغات التي كانت تتكلمها الشعوب المحتلة والعامة الرومانية وتجزأت إلى لغات عدة لتصبح ما يسمى باللغات الرومانية والتي بدورها نجم عنها لغات محلية عدة. ففي ايطاليا صارت اللغة المحلية التوسكانية هي اللغة الإيطالية الرسمية بفعل النفوذ الأدبي الذي مارسه دانتي وبترارك وبوكاسيو. وفي فرنسا فإن اللغة المحلية الباريسية هي التي تحولت إلى لغة قومية كون كونت باريس أصبح ملك فرنسا.

وسنرى في الفصل اللاحق تطور اللغة العربية منذ القدم والعوامل التي أسهمت في رفعها إلى صف اللغة الأدبية والقومية وإنتشارها في جزيرة العرب وخارجها. كما سنرى أيضاً وبعد ذلك لغات الشرق المتوسطي السابق للإسلام الذي سيتعرب بعد الفتح الإسلامي والذي كانت لغاته قبل ذلك الفتح ممثلة بالآرامية في الهلال الخصيب واللغة القبطية في وادي النيل.

III. اللغة العربية منذ الأصول ـ تطورها وإنتشارها

إن اللغة العربية التي ظهرت فجأة في مطلع القرن السادس كلغة كاملة ومنجزة كانت لها شخصيتها وتطورها منذ أقدم العصور.

فالعربية، وإذا ما قورنت باللغات السامية الأخرى، فإنها تظهر غنى مدهشاً في المفردات وسلسلة المرادفات. ذلك أن هذه اللغة تشكلت لدى مختلف قبائل الجزيرة العربية وكان لكل قبيلة لغتها أو لهجتها. ولما كانت الشعوب تلتقي خلال الحج السابق للإسلام إلى الكعبة في مكة فقد حصل إندماج تدريجي لمختلف اللغات المحلية خلال العصور السابقة. ومن جهة أخرى فإن صفاء اللغة العربية بالمقارنة مع اللغات السامية الأخرى إنما يعود بخاصة إلى عزلة شبه الجزيرة العربية حيث الهجرات والغزوات الأجنبية لم تصلها أبداً تقريباً.

إن الصيغ المختلفة للغة العربية منذ الأصول تنتمي إلى ثلاث مراحل مختلفة: العربية ما قبل التقليدية؛ العربية التقليدية والأدبية؛ والعربية العامية ما بعد التقليدية.

١ ـ العربية ما قبل التقليدية

إن العربية ما قبل التقليدية تتألف من: العربية البدائية أو العربية الأولية والعربية القديمة.

العربية البدائية أو العربية الأولية. ـ «إن أقدم الوثائق في العربية هي عبارة عن نحو أربعين إسم علم تظهر في روايات المعارك الأشورية ضد العربي... خلال السنوات ٨٥٣ ـ ٦٢٦ق.م. ...ويمكن الجزم بأن كلها

تقريباً عربية»[10]. إن العربية البدائية أو الأولية، التي لا نعرف عنها الكثير، بقيت حتى القرون الأولى من العهد المسيحي.

العربية القديمة. ـ تنتمي على الأرجح إلى اللغة العربية القديمة لغة العرب العاربة والعرب البائدة والتي إعتمدت العرب المستعربة بحسب ما يؤكد المؤرخون العرب بلدها ولغتها.

«هناك نقشان بالحروف النبطية، لكنها عملياً بلغة عربية خالصة، يعودان إلى زمن اللغة العربية القديمة: الأول في حجرة (حالياً مدائن صالح) في الحجاز الشمالي ويعود تاريخه إلى العام ٢٦٧ من عهدنا الحالي والثاني نقش امرؤ القيس «ملك كل العرب» في النمارة (جنوب شرق دمشق) ويعود تاريخه إلى العام ٣٢٨ ب.م.»[11].

٢ ـ العربية التقليدية والأدبية

إن العربية التقليدية والأدبية تتألف من لغة الشعر القديم والقرآن الكريم ولغة الأدب الإسلامي.

ففي القرن الرابع والقرن الخامس والقرن السادس ب.م. ظهرت صيغة اللغة العربية التي نسميها اليوم الكلاسيكية أو التقليدية. «إن هذه اللغة التي إستخدمها شعراء الجاهلية، الذين كان العديدون منهم بدواً وبعضهم من الطائفة المسيحية أو اليهودية، غدت أداة التعبير عن المستند الأم في الإسلام وهو القرآن الكريم وعن روائع الأدب العربي خلال العصور اللاحقة»[12].

«ويشير المؤرخ فلهاوزن، وهو على الأرجح على حق، «إلى أن اللغة العربية التقليدية حققت إنتشارها على يد مسيحيي الحيرة... وقد بقي بلاط الحيرة مركز إستقطاب للشعراء البدو وهذا ما شجع تطور اللغة الشعرية وتوحيدها...

وأما بالنسبة إلى أصل اللغة الشعرية بحد ذاتها فالروايات الإسلامية القديمة عزته إلى قبائل عدة ... ومما لا ريب فيه أنه وفي نهاية القرن السادس كانت اللغة العربية لغة أدبية خالصة متميزة عن سائر العاميات وهي متفوقة

10 C. Rabin, *op. cit.*, p. 580.
11 C. Rabin, *op cit.*, p. 582.
12 G. Rentz, «Djazirat al-Arab», *Encyclopédie de l'Islâm*, Nouvelle Edition, I, p 566.

عليهـا . . . وقد أمن إستمـراريتها الـرواة المحترفون . وكانت تلك اللغـة موحـدة الشكل في أنحاء جزيرة العرب كلها»[13] .

وبـين هذه اللغـة الأدبية السـائدة عـلى جميع اللغـات القبلية والمشتـركة في كل الجزيرة العربية واللغة الحجازية أيام النبي محمدﷺ فـإن لغة القـرآن الكريم جاءت لتحل بين اللغتين .

«إن اللغة الأدبية العـربية بعـدما تحـولت بفضل الإسـلام إلى لغة مقـدسة أنزل بها الله على رسولـه محمدﷺ نص القـرآن الكريم وحـدت إصطلاحيـاً بدءاً من القرنين التاسع والعاشر . . .

وإتخـذ علماء القرون الإسـلامية الأولى منـطلقاً لهم النص الأصـلي للقرآن تاريخياً الذي أعيد جمعـه وتدوينـه ونشره رسمياً في القرن السـابع . ولكن جهـد العلماء الـرئيسي في القرن الثـامن والتاسـع والعاشـر كـان منصبـاً عـلى عنـاصـر الأدب مـا قبل الإسلامي»[14] كالشعـر وخـطب المـايـة وخمسـين سنـة الأخيـرة من الجاهلية إلخ . . .

٣ ـ العربية العامية ما بعد التقليدية

وبـرغم أن كل البلدان النـاطقة بـاللغة العـربيـة إعتمـدت اللغـة الأدبيـة المشتـركة لضـرورات الكتابـة إلا أن تلك البلدان ثابـرت على إستخـدام لغـاتهـا الشعبية الخاصة ولهجاتها العامية في علاقاتها اليومية وتخاطبها .

«ومـع الفتوحـات إنتشرت اللغـة العربيـة في أراض غير عـربية جـديـدة (سورية ،مصـر، العراق، إيـران، إلخ . . .) . . . وفي المقـاطعات الجـديدة ظـل السكـان يتداولـون لغاتهم الأصليـة لكنهم إضطروا في عـلاقاتهم مـع الحكم إلى التكيف مع لغة الفاتحين . . . وإن الموالي أو السكان الأصليـين المتأسلمـين كانـوا يتكلمـون لغة عـربية محـرفة جـداً وذلك بسبب تـأثـير لغـة أجـدادهم من جهـة وبسبب لهجـة سـادتهم وجيـرانهم العـرب من جهــة أخـرى . . . إن كــل تلك اللغـات المختلفـة جـداً كـانت رائـدة اللغـات المحليـة في العـالم العـربي، والتي تتكلمها الطبقات الشعبية في مدن المقاطعات المتفرقة . . .

13 C Rabin, *op. cit.*, p. 583.
14 M. Khalafallah, «Arabiyya», *Encyclopédie de l'Islam,* Nouvelle Edition, I, p. 585.

وحوالي العام . . . ٩١٢ زال تداول اللغة العربية التقليدية أو الفصحى كلغة تخاطب في أوساط المجتمع الراقي أو دواوين العدل أو المعاهد وإنحصرت في إطار لغة أدبية . . . وأضحت اللغة العربية بعدها وسيلة يستخدمها العلماء. ومنذ العام ٩٨٥ عانت لغة تخاطب الطبقات العليا كثيراً من تسلل اللهجات المحلية إليها. . .

وبعد تدمير البلدان الآسيوية إثر غزو المغول لها، دخلت مصر مسرح التاريخ وأضحت في أيام المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧) مركز الثقافة والأدب العربيين وكانت اللغة الأدبية خلال تلك الفترة هي اللغة ما بعد التقليدية. وظهر كتّاب نثر إستخدموا اللغة العامية التي كان يتكلم بها المجتمع الراقي. . . (وفي أيام حكم السلاطين العثمانيين بدءاً من العام ١٥١٧) إنحدر النشاط الأدبي إلى أدنى مستوى له. ففي مصر صارت العربية الفصحى ميزة مختصة بطبقة من النخبة.

وكانت اللغة المحلية تستخدم أحياناً لأغراض أدبية. . . وفي سورية قام أسقف حلب الماروني جرمانوس فرحات(المتوفى العام ١٧٣٢) بجهد كبير لإحياء دراسة علم الصرف والنحو وتأليف القواميس وإحياء علم البلاغة العربية في صفوف مواطنيه. . . وقد دامت تلك المرحلة المتسمة بالجمود والتردي حتى مطلع القرن التاسع عشر»[١٥].

٤ ـ اللغات المحلية العربية الحالية

إن اللغات المحلية العربية المتداولة حالياً في مختلف مناطق العالم العربي تستمد أصولها كلياً من اللهجات القديمة في شبه الجزيرة العربية وبخاصة لهجات الحجاز ونجد وصحراء سورية والتي نشرتها الجيوش العربية في البلدان المحتلة. وهذه اللهجات المحكية المختلفة يمكن تقسيمها اليوم إلى مجموعتين كبيرتين، تشمل الأولى لهجات الشرق العربي وتضم الثانية اللهجات المغربية أو الشمال ـ الأفريقية.

15 J. W. Fück, «Arabiyya», *Encylopédie de l'Islâm*, Nouvelle Edition, I, p. 586-590.

في الشرق العربي تتوزع اللهجات أو اللغات المحكية العربية المختلفة في تقسيم ثلاثي على ثلاثة أنواع من السكان: أبناء المدن، الحضر الريفيون (الفلاحون)، والبدو. ففي مصر وسورية وفلسطين ولبنان فإن لغات تخاطب الحضر سواء سكان المدن أو الريف تتعارض مع لغة تخاطب البدو. وفي العراق فإن لغات تخاطب البدو تطغى لغوياً حتى بين سكان المدن (هـ. فلايش).

IV. لمحة ما قبل تاريخية وتاريخية

حول جزيرة العرب في مرحلة ما قبل الاسلام

من الصعب تكوين فكرة صحيحة كفاية عن الأحداث التي تشكل تاريخ جزيرة العرب في مرحلة ما قبل الإسلام وهو تاريخ غامض ومعقد . فجزيرة العرب كسائر البلدان، وربما أكثر منها، كانت لها خرافاتها وأساطيرها وقد إقترن تاريخ أصولها بعدد هائل من الروايات الأسطورية.

فجزيرة العرب الواقعة في جوار أقدم الحضارات التاريخية القديمة وفي وسط مراكز الحضارة الأولى من عالمنا القديم، إن هذه الجزيرة، وبفضل موقعها التاريخي، إستخدمت منذ القدم كمنطقة عبور بين تلك الحضارات ولم تدخل هي نفسها مسرح التاريخ إلا في مرحلة حديثة نسبياً.فقد كانت تسود تلك البلاد، وخلال القرون الأولى من عهدنا، الظلمات التاريخية.فلا غرابة إذا كنا لا نملك حول ماضيها في عصور ما قبل التاريخ سوى معلومات إفتراضية تدعمها الأساطير والروايات وبعض الشهادات من الشعوب المجاورة لها أو الأجنبية.

ويقول رينان «ما من عرق قبل بلوغه مرحلة الوعي، غطّ في مثل هذا السبات الطويل والعميق. فالجزيرة العربية، وحتى الإسلام، لم يكن لها أي مركز في تاريخ العالم الفكري أو الديني أو السياسي». ويمكننا أن نضيف أنه وبعد إنقضاء بضعة عقود على إنتشار الإسلام فإن هذا العرق الكبير عاد ليقع مجدداً في سباته الجاهلي العميق.

إن العرب أنفسهم، وقد وعوا تلك الثغرة، إنما كانوا يشيرون إلى الفترة التي سبقت الإسلام بإحتقار على أنها الجاهلية. وتلك التسمية التي يمكن أن

تنطبق بالحري على الحياة الدينية هي غير صحيحة بالنسبة إلى الحياة الثقافية. فعرب ما قبل الإسلام كانوا يمتلكون في الحقيقة أدباً ولغة جد متطورين وإلماماً واسعاً بسلسلة النسب وبعض المعلومات التاريخية المتعلقة بها. وكانوا على بينة من مراقبة مجرى الكواكب وأنتجوا شعراً مرهفاً وحساساً. ومن جهة أخرى فإن عرب المدن كانوا قد توصلوا إلى درجة متقدمة من الثقافة. وأخيراً فإن اليمن كانت مركز مدن مزدهرة جداً وكانت تمتلك قبل الإسلام بكثير حضارة جد متقدمة.

إن الوثائق القليلة التي بين أيدينا عن عرب ما قبل الإسلام (النقوش الأشورية، التوراة، العلاقات اليونانية والرومانية والبيزنطية والعربية إلخ...) لا تفي بإطلاعنا على أي حال إلا على الشمال والجنوب العربيين. وبإستثناء تلك الوثائق لا نملك عن الشعوب القديمة في الجزيرة العربية، وبخاصة شعوب وسط هذه الجزيرة، سوى روايات وأساطير من العهد المتأخر وبعضها لا يستند إلى أي أساس.

وقد رأينا أن إسمي العربي والعربية واللذين كانا يعنيان أصلاً البدوي وبلاد البدو لم يكونا ينطبقان إلا على بلاد شمال الجزيرة العربية وسكانها. وإنهما إمتدا تدريجياً ليشملا وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها بدءاً من نهاية الألف الأول ق.م.

إن شبه الجزيرة العربية كانت مأهولة في العصور الباليوليتية والنيوليتية. وكان سكانها الأولون يستخدمون الحمار بشكل رئيسي وهو حيوان لم يكن معداً للمسافات الكبيرة في مناطق تفتقر إلى المياه، إذ لم يتم تدجين الجمل إلا في القرون الأخيرة من الألف الثاني ق.م.

سنحاول أن نعرض بإختصار وتسلسل في حقبتي ما قبل التاريخ والتاريخ تطور: ١ ـ عرب الشمال(صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين). ٢ ـ عرب الوسط(نجد، الحجاز، إلخ...). ٣ ـ عرب الجنوب(اليمن، حضرموت، إلخ...).

١ ـ شمال الجزيرة العربية (صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين)

أ ـ في الألف الرابع والثالث والثاني ق.م.

إن صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين« ليست فقط إمتدادا جغرافيا لشبه الجزيرة العربية ولكنها أيضاً إمتداد إثنوغرافي لها» ـ (دوسو).

في الألف الرابع، كما رأينا، فإن شعوباً سامية مجهولة الهوية خرجت من صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين وتسللت وإستقرت في الفرات الأوسط.

وفي الألف الثالث فإن الكنعانيين ـ الأموريين ـ الأكاديين(حوالي العام ٢٩٠٠) والأموريين (حوالي العام ٢٤٠٠) وهي شعوب سامية خرجت من الصحراء نفسها وسادت البلدان الحضرية في الهلال الخصيب وحوّلت شعوبها إلى السامية.

وخلال الألف الثاني كله قامت شعوب سامية جديدة بإحتلال صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين وإجتياح حدود بلدان حضرية هي أمورو (سورية) وكنعان(فلسطين) وأشور ـ بابل. وإن نقوش بلاد ما بين النهرين تطلق على تلك الشعوب الأخلامو أو «الآراميين الرحل» والخابيرو أو العبرانيين».

ب ـ في الألف الأول ق.م.

وبعد إستقرار جزء كبير من الأخلامو في سورية ـ بلاد ما بين النهرين حوالي نهاية الألف الثاني فإن العناصر الحضرية من ذلك العرق إتخذت إسم الآراميين في حين أن من ظل على حياة الترحال منهم سماهم الأشوريون عرباً. وأما بالنسبة إلى الخابيرو فمن إستقر منهم في فلسطين صار يدعى بالإسرائيليين في حين أن أبناء جنسهم الذين ثابروا على حياة البداوة فظلوا يعرفون بالعبرانيين أو بدو كنعان.

ولا نعرف ما أذا كان عرب النقوش الأشورية، ومنذ مطلع الألف الأول، يشكلون شعباً جديداً قادماً من الهضبة العربية أو ما إذا كان الأشوريون قد سموا عرباً (بدو)«الآراميين الرحل» في ذلك العصر.

كل ما يمكننا قوله في هذا المجال هو أنه،من القرن التاسع وحتى القرن السابع ق.م. فإن النقوش الأشورية تذكر نحو أربعين إسم علم هي من الأسماء العربية الأولية أي الخاصة بلغات من وسط شبه الجزيرة العربية ولكن النصوص التي توردها هي باللغة الأكادية(الأشورية ـ البابلية). وأما اللغات الشائعة في ذلك البلد من الجزيرة العربية(مات عربيي أو صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين) فنحن نعرف أنها كانت ممثلة في حوالي ذلك العصر بلغات ولهجات آرامية وأمورية وكنعانية.

إن أول نقش أشوري يذكر إسم عربي يعود إلى القرن التاسع ق.م. «فالعربي جنديبو» الوارد ذكره في نقش الملك الأشوري شلمنصر الثالث هو رئيس قبيلة إستأنف سياسة الآراميين الرحل المعادية للأشوريين فساند ملك دمشق الآرامي في معركة كركر(٨٥٤) بأن زوّده بألف جمل.

«وقد يكون مضرب خيام قبيلة جنديبو يقع في جنوب شرق دمشق. ومن المؤكد أن العناصر البدوية في شبه الجزيرة العربية ـ والتي كانوا يسمونها بلا تمييز على الأرجح آرام وعبر أو خابيرو ـ كانت مستقرة أصلاً في المنطقة الممتدة بين سورية وبلاد ما بين النهرين»[16].

وفي أيام حكم الملك تغلت فلصر الثالث الأشوري (٧٤٥-٧٢٧) فقد كانت هناك ملكتان من بلاد عربي هما زبيبي وشمسي اللتان كانتا تدفعان الجزية للملك الأشوري وتحكمان، الأولى واحة أدومو (دومة الجندل) في جنوب الصحراء السورية والثانية منطقة حوران الجنوبية في جنوب شرق دمشق. ولا مجال هنا لذكر الملكة بلقيس التي زارت الملك سليمان في أورشليم، فقد حكمت بلاد سبأ (اليمن) جنوب الجزيرة العربية.

وفي العام ٦٩٠ فإن الملك الأشوري سنحاريب الذي كان يخطط لغزو مصر، دخل إلى الصحراء الفلسطينية حيث إكترى جمالين وجمالاً لنقل الجنود وتزويدهم بالمؤن والمياه عبر صحراء سيناء. ولدى عودته إلى غزة أضاف إلى ألقابه السابقة لقب« ملك العرب».

«بيد أن إخضاع تلك الشعوب (العربية) لم يكن يوماً تاماً ولا دائماً . . . ومع أن لقب «ملك» يتردد غالباً في القصص الأشورية إلا أنه لا يعني أكثر من رئيس محلي أو شيخ، ولم يمارس هؤلاء الزعماء العرب سلطة ملكية حقيقية إلا في وقت لاحق جداً»[17].

وفي أيام الفرس الأخمينيديين(٥٥٠ ـ ٣٣٣) فإن مخيم لاشيس في محاذاة غزة الذي هو قاعدة عمليات عسكرية ضد مصر كان يشكل، كما رأينا قطاعاً إدارياً يسمى عربايا ملحقاً بمرزبة آبارناهارا (سورية) الفارسية. وقد كانت

16 A. Grohmann, «al-Arab», *Encyclopédie de l'Islam*, Nouvelle Edition, I, p. 540.

17 A. Grohmann, *op. cit.*, p. 541.

بلاد عربايا هذه تمتد على مجمل شمال الجزيرة العربية من حدود مصر وشمال البحر الأحمر وحتى الفرات وشمال الخليج العربي.

ج ـ في العصر اليوناني ـ السلوقي(٣٣٠ ـ ٦٤ق.م.)

وفي العصر اليوناني ـ السلوقي، كما أسلفنا، عمّم يونان مصر إستخدام إسم العربية على مجموع شبه الجزيرة العربية.

وفي نهاية الألف الأول ق.م. فإن العرب الأنباط الذين جاؤوا من وسط الجزيرة العربية وسادوا على السكان الآراميين والأمونيين في العربية الصخرية وشرق الأردن بدأوا يلعبون دوراً هاماً في الشؤون السورية. وحوالي ذلك العصر نفسه فإن رؤساء ينتمون إلى وسط الجزيرة العربية برزوا كملوك في مناطق مختلفة من الهلال الخصيب لا سيما في قدس وتدمر.

أما في عصر آخر السلوقيين (١٢٠ ـ ٦٤ ق.م.)، كما رأينا، وقعت سورية فريسة الفوضى مما أتاح للأنباط والإيتوريين العرب الدخول إلى الأراضي الحضرية السورية ـ اللبنانية.

«وهكذا فإن الإيتوري بطليموس المستقر بقوة في خالقيس (عنجر) المشرفة على البقاع(بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي) ومن ذلك الموقع المرتفع كان يفرض الجزايا على القوافل المتجهة من دمشق إلى بيروت أو بعلبك فضاق به الدمشقيون وإستنجدوا بملك الأنباط أريتاس الثالث (٩٥ ـ ٨٨ق.م.) لوضع حد لممارساته.

فكان أن إستقر هذا الأخير في دمشق حيث سك عملة كتب عليها باليونانية: بازيليوس أريتو أي الملك أريتاس (إلى اليمين) فيلهيلينوس أي محب اليونان(إلى اليسار)... ومن خالقيس(عنجر) إنتشر الإيتوريون عبر لبنان حتى الساحل الفينيقي حيث إحتلوا ممر ثيوبروزوبون الشهير ومرفأ بوتريس (البترون). ومن هناك أقلقوا بيبلوس وبيروت إلى أن تدخل بومبيوس الروماني، كما رأينا، فوضع حداً لممارساتهم»[١٨].

د ـ في العصر الروماني(٦٤ق.م. ـ ٢٨٥ب.م.)

عند وصول الرومان إلى سورية فإن ملوك بلاد الأنباط الذين كانوا قد تقدموا حتى دمشق كانوا يسمون أنفسهم«ملوك العرب الأنباط». لكن لغات

18 R. Dussaud, *op. cit.*, p. 148 et 178.

هـذه المملكة نصف الحضـرية التي كـانت تقـطنهـا قبـائـل سـاميـة من السكـان الأصليـين(آراميون، أمـوريون، أمـونيون، إلـخ. . .)، ويسود عليهم الأنبـاط الـذين ينتمون إلى وسط الجـزيـرة العـربيـة، كـانت مـا تـزال اللغـات الأرامية. وحدها أسماء رؤسائهم تدل إلى محتدهم في وسط الجزيرة العربية.

وفي العـام ١٠٦ب.م. فإن مملكـة الأنباط التي تحـولت إلى ولاية رومـانية سميت بـروفنسيـا آرابيـا أي المقـاطعـة العـربيـة. ومن تلك المقـاطعـة النـاطقـة بالآرامية تحدر الأمبراطور الروماني فيليبوس الملقب بالعربي.

وفي مـا بين العـام ٢٧٢ ـ ٢٧٣ فإن مملكـة تدمـر العربيـة ـ الآراميـة التي كانت لغتها ايضـاً الآرامية دمـرها الـرومان وضمـوا أرضها إلى مقـاطعة سـورية الرومانية.

وبعـد إزالة مملكتي العـرب ـ الآراميين الأنبـاط وتدمـر فإن قبـائل بـدويـة جـديـدة قـادمـة من وسط الجـزيـرة العـربيـة ظهـرت في الصحـراء السـوريـة ـ المابينهرية. وكان من أشهـرها الغسـاسنة واللخميـون الذين كـانوا يتكلمـون لغة وسط الجزيرة العربية التي هي الجـدة المباشـرة للعربيـة التقليديـة والقرآنيـة. وما أن إستقـر الغساسنـة في شـرق سـوريـة حتى أسسـوا حـوالي العـام ٢٤٠ إمـارة عـرفت بإسم مملكـة غسان كـان مركـزها في حـوران جنـوب دمشق. فيـما أبنـاء جنسهم اللخميـون الذين إستقـروا غرب وادي الفـرات الأسفـل أسسـوا هنـاك حوالي العام ٢٨٠ مملكة الحيرة على إسم عاصمتها «الكوفة المقبلة.

«ومـع مرور الـزمن تراجعت اللغـة النبطيـة(الآرامية) أمـام العـربيـة لكن الكتـابة النبـطية إستمـرت وغدت الكتـابة العـربية. . . وقـد جاء إنكفـاء اللغة الآرامية في صحراء سورية نتيجة لسقوط تـدمر العـام ٢٧٢ ـ ٢٧٣ من عهدنـا. وقـد أدى هذا الحـدث بالنسبـة إلى قبائـل الصحراء السـوريـة إلى حلول هيمنـة أمـراء الحيرة محـل الأمراء التـدمريـين. وبالفعـل وبعد سقـوط تدمـر إتخذ ملوك الحيـرة لأنفسهم لقب« ملك كل العـرب» كما تشهـد على ذلـك بلاطـة ضـريـح ملك الحيرة أمرىء القيس(٣٢٨) المكتوبة بالعربية ولكن بالخط النبطي»[١٩].

هـ ـ في العصر اليوناني ـ البيزنطي (٢٨٥ ـ ٦٤٠ ب.م.).

إن أباطرة بيزنطيـة اليونـان ـ الرومـانيين، وقـد إستأنفـوا وطوروا سيـاسة

19 R. Dussaud, *op. cit.*, p. 63.

روما، إستخدموا العرب الغساسنة الذين كانوا من تابعيهم ضد إخوانهم في الصحراء السورية ـ العربية وضد الفرس. وفي الوقت نفسه فإن العرب اللخميين في الحيرة التابعين للفرس كانوا يلعبون الدور نفسه إزاء هؤلاء الفرس. لذا فإن دولتي الغساسنة واللخميين العازلتين، وعلى غرار سيديهما، كانتا في كثير من الأحيان على نزاع فيما بينهما.

ومنذ القرن السادس كانت المسيحية مزدهرة وسط بدو الصحراء السورية ـ المابينهرية حيث كانت العقائد المسيحية الملكية منها والقائلة بالطبيعة الواحدة والنسطورية ممثلة بثلاث كنائس بدوية ذات إكليروس خاص وسلطة تسلسلية أسقفية خاصة بكل منها. لكن نفوذ القائلين بالطبيعة الواحدة أو اليعاقبة هو الذي كان غالباً في تلك المناطق بفضل حماية الملوك الغساسنة العرب لهم والذين كانوا هم أنفسهم من القائلين بالطبيعة الواحدة. وكما رأينا فإن يعقوب برادعي الرئيس الأعلى والمنظم للكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة أقام بين ظهراني ملوك بني غسان.

ومن جهتهم، كان ملوك الحيرة العرب، الذين كانوا هم أيضاً مسيحيين، يحمون الكنيستين النسطورية والقائلة بالطبيعة الواحدة معاً وقد كان رئيساهما، الأول يقيم في الموصل والثاني في الحيرة.

إن زوال مملكتي غسان(٥٨٢) والحيرة(٦١٣) على التوالي على يد البيزنطيين والفرس قد أدخل الخلل إلى القبائل العربية في صحراء سورية ـ بلاد ما بين النهرين والتي بدافع الحقد على سيديها القديمين رحبت بإخوانها الفاتحين العرب عرب الحجاز الذين تدفقوا بعد العام ٦٣٠ بإتجاه الهلال الخصيب. حتى أن هذه القبائل إنضمت إلى جيوشهم المنتصرة وإعتنق معظمهم الدين الإسلامي. فقد كانت مونوفيزيتهم أقرب إلى التوحيد الإلهي الإسلامي مما كانت إلى القول بالطبيعتين بحسب العقيدة البيزنطية.

٢ ـ وسط الجزيرة العربية(الحجاز، نجد، إلخ. . .)

لا شيء على الإطلاق كان يهيء عرب الحجاز لموافاة الحظ الذي واكبهم بعد نشأة الإسلام. إذ أنه حتى ذلك الحين كان تاريخهم المحصور كلياً بمكة شبه غائب بالمقارنة مع تاريخ جيرانهم في الجنوب الأقوياء والأغنياء: اليمنيين الحضر. إن عرب الحجاز،وهم من البدو وأنصاف البدو، فضلاً عن أبناء جنسهم في وسط الجزيرة العربية، كان مجال تنقلهم وإنتجاعهم كل الجزيرة

الـداخلية من حـدود اليمن وحتى حدود العـربية الصخـرية بمـا في ذلك منـطقـة نجد. ويسميهم الكتّاب العرب بعرب الشمال نظراً لموقعهم الجغرافي بالنسبة إلى اليمنيين المسمين بعرب الجنوب.

وفي حين كان الأنباط والغساسنة واللخميون وسواهم من القبائل العربيـة الأصـل، وكـما رأينـا، قـد أسسـوا لهم دولاً صغيـرة نصف حضـريـة في شمـال الجزيرة العربية وعلى تخوم سـورية وبـلاد ما بـين النهرين،وفي حـين كان المينيـون والسبئيـون والحميريـون إلخ. . . قـد أسسوا في اليمن في الجنـوب مملكة منـظمة ومزدهرة تعـاقبت على حكمهـا خلال قـرون عديـدة بضع سـلالات من الملوك، على العكس من ذلك ففي الحجـاز ووسط الجزيـرة، وهي منطقـة بدو وأنصـاف بدو، يبدو أن فوضى غير نظامية كانت مسيطرة. فقـد ثابـر الحجازيـون، الذين خلفوا العماليق ممن بـادوا أو هاجـروا،فضلاً عن القبـائل الآراميـة التي إستقرت بينهم وإستعـربت بفعـل إحتكـاكهـا بهم، وإلى فتـرة طـويلة عـلى حيـاة تتصف بالسبات العميق.

وخلال قرون عـدة بالفعـل لم يحصل أي حـادث يذكـر،يكشف عن وجود عرب الحجاز لمعاصريهم. إن هجرة العرب البائدين يبـدو أنها إستنفدت وطـوال قرون عدةحيوية العـرب العاربـة العرقيـة. ولأمد طـويل ستـظل مكة ويثـرب (المدينة) مدينتين مغمورتين ومجرد إستراحتين على طريق القوافل.

وحدها مكة، فقط بفضل دورها كمركز حج لبدو الجوار وبخاصة بفضل تردي اليمن ونقل طريق الهند التجـارية نحـو البحر الأحمـر، بدأت ومنـذ القرن الخـامس تلعب دوراً مهماً كمـدينة تجـارية. وسـرعان مـا سيتحـول هـذا الـدور المحلي والمتواضع نسبياً ويصبح بعد الإسلام دوراً عظيماً وعالمياً.

أ ـ المرحلة الأسطورية

بحسب الـروايـات فـإن لعـرب الحجـاز ووسط الجـزيـرة العـربيـة بـطلاً أسـطوريـاً وسلفـاً أعـطى إسمـه لقبـائلهم: إنـه عـدنـان سليـل إسمـاعيـل بن إبراهيم. إن هؤلاء العرب كونهم يسكنون في مناطق صحراويـة كلياً فقـد كانـوا يعيشـون تحت الخيام وينتقلون مـع قطعـانهم سعياً وراء أفضـل منـاطق الكـلأ. وكـانت أهم مراكـزهم الحضريـة مكة ويثـرب(المدينـة). وإن مكة بفضل نبعها وهـو بئـر زمـزم، كـانت محـطة للقـوافـل البـريـة التي كـانت تنتقـل بـين اليمن وسـورية. إن تلك الـظروف الملائمـة كانت تجعـل من مكة ومعبـد الكعبة فيهـا

مركزاً هاماً للتجمع والحج بالنسبة إلى جميع قبائل المناطق المجاورة. وقد رأينا أنه وفي صحراء النقب فإن مدينة قادش(المقدسة)، حيث توقف موسى وإسرائيليوه لدى عودتهم من مصر، كانت تلعب قديماً بالنسبة إلى الساميين البدو في العربية الصخرية وشمال الجزيرة الدور نفسه الذي كانت تلعبه مكة بالنسبة إلى عرب الحجاز ووسط الجزيرة العربية.

وبرغم قربهم من البحر فإن حضر الحجاز الذين كانت تنقصهم المرافىء الطبيعية، لم يكونوا بحارة. لذا إقتصر نشاط أهالي مكة وحضارتهم على الأرض. فالملاحة في البحر الأحمر كانت تستأثر بها مصر اليونانية - الرومانية. فيما الملاحون البحريون الشهيرون في القدم كانوا ملاحي عُمان الواقعة على بحر عُمان وهي منطقة جبلية يضم ساحلها مرافىء جيدة.

إن أصل عرب الحجاز ووسط الجزيرة، كما أسلفنا، يعود إلى إسماعيل إبن إبراهيم وهاجر المصرية، الذي نعرف قصته (الجزء الأول). فالقصة التوراتية تنسب إلى إسماعيل وأمه هاجر أول مسكن لهما الصحراء المجاورة للعقبة شمال البحر الأحمر. وأما العرب فيقولون بأن إسماعيل أقام في مكة حيث تزوج بفتاة من أسرة جرهوم، سادة تلك المدينة، وإن الروايتين التوراتية والعربية لا تتعارضان إلا في الشكل. فإسماعيل يمكن أن يكون قد خيّم في البدء في صحراء سيناء ومنها إنتقل فيما بعد إلى الصحراء المجاورة للحجاز.

وبعد إسماعيل بقرون عدة، فإن موسى، حاذياً حذوه، سيتزوج في صحراء سيناء إبنة أحد رؤساء القبائل البدوية وهو جثرو الكاهن المحلي في أراضي مديان.

إن أسرة جرهوم، وهي من العرب الأصليين، والتي تزوج إسماعيل إحدى بناتها، هي من بقايا العرب العاربة والباقية الذين ظلوا في الحجاز بعد هجرة العرب البائدين أو جزء من هؤلاء ممن عادوا من اليمن. وإن إسماعيل قد تحول إلى العربية بإتصاله بهؤلاء وتبنى لغتهم وعاداتهم وأنجب ذرية كبيرة. فمن زواجه بالجرهومية ولد له إثنا عشر صبياً أعطوا أسماءهم لبضع قبائل في المنطقة. وأشهر أبنائه هو قدار المذكور في التوراة وقد إعترف به أخواله الجراهمة كملك على الحجاز.

وبفضل التوراة بخاصة التي إقتبست منها أسطورة إسماعيل وصلنا القليل الذي نعرفه عن قبائل وسط الجزيرة العربية تلك. فبدو الحجاز ووسط

الجزيرة نظراً لعدم تأسيسهم قط دولاً منظمة شبيهة بدول حضر اليمن،فقد كان يستخدمهم حضر البلدان المحيطة بهم لمواكبة القوافل ونقل البضائع.

وبحسب التوراة فإن رجال قافلة عربية إسماعيلية هم الذين إشتروا يوسف من إخوته وذلك لبيعه في مصر. وبعد نحو خمسة قرون من حادثة يوسف فإن العهد القديم يذكر سلالة إسماعيل الذين كانوا على حرب مع الإسرائيليين وكانوا يسمونهم تارة« بني المشرق» وطوراً بالأسماعيليين نسبة إلى إسماعيل جدهم البعيد. وبعدها بقليل سموا قدار وهو إسم توراتي لأحد أبناء إسماعيل. وفي القرن السادس ق.م. كان يشار إليهم بإسم قدار ونبط(ومنها نبطيون؟).

في القرن السابع ق.م. وبدءاً من العام ٦٨٠ تفيدنا النقوش الأشورية بأن الجزء الشمالي من الحجاز كان تارة خاضعاً لملوك أشور وطوراً متمرداً ثم مسالماً. وكان الهدف من ذلك حماية مركز تيماء، بين مكة وبترا والذي كان على مفترق الطرق التجارية البرية التي تؤدي من مكة إلى المتوسط وبلاد ما بين النهرين، من هجمات البدو. وفي أيام حكم الملك نبوخذ نصر الثاني(٦٠٥ ـ ٥٦٣) فإن تلك المنطقة الصحراوية دمرت تدميراً شاملاً كما أن سكانها «الإسماعيليين وآل قدار وبني مشرق» والذين تذكرهم أيضاً التوراة قد هزموا وشردوا.

وبعد زوال السيطرة الكلدانية التي يبدو أنها أضعفتهم فإن من بقي من الإسماعيليين والجرهوميين تجمعوا بإمرة عدنان وهو إبن حفيد إسماعيل وأعلنوا من جديد إستقلالهم. ومن هذا« العدنان»، كما نعرف، إستمد عرب الحجاز ووسط الجزيرة العربية إسم العدنانيين وهو الإسم العام الذي عرفوا به.

ب ـ الفترة الإنتقالية إلى التاريخ (protohistorique)

إن العدنانيين، مع تفرقهم في البلاد، تكاثروا خلال القرون وسادوا على تهامة والحجاز ونجد وصحارى الشمال وسيظلون على عداء دائم مع قحطانيي الجنوب(اليمن). وكان كل تاريخهم ولفترات طويلة سلسلة من المعارك الأخوية والغزوات والهجمات التي تغنى بها الشعراء العرب. وسنتبع هنا تحدر إحدى قبائلهم وهي قبيلة قريش التي منها سيخرج ذات يوم مؤسس الإسلام. والأسماء المذكورة في كل قبيلة هي أسماء الجد الذي تحدرت منه تلك القبيلة.

عدنان.ـ أنجب ولدين أصغرهما معاد الذي جمع تحت إمرته بقايا

الإسماعيليين الذين أعلنوا من جديد إستقلالهم في مكة. وبعد وفاة معاد إنتزعت السلطة على مكة من يد العدنانيين وتسلمتها بعد ذلك سلسلة طويلة من القبائل اليمنية(حوالي العام ١١٥ق.م.).

نزار ـ أحد أبناء معاد وجد المجموعات القبائلية الكبيرة التي حملت إسمه في وسط الجزيرة العربية. وأما ربيعة ومضر، وهما إثنان من أبناء نزار، سيعطيان إسميهما لمناطق سورية ـ ما بينهرية زالت بعدها. وإن أحد المتحدرين من ربيعة وهو بكر سيعطي إسمه لمدينة ومنطقة عاميدا هي ديار بكر التي ما تزال تحمل هذا الإسم حتى يومنا هذا.

الياس.ـ إبن مضر كان له ٣ أولاد منهم مدركة والد خزيمة الذي ولد كنانة والذي إنحدر من سلالته قريش وهو جد القبيلة الشهيرة التي تحمل هذا الإسم نفسه. وفي حوالي نهاية القرن الرابع أو مطلع القرن الخامس ب.م. صار قُسَي وهو زعيم عشيرة قريشية صهر الرئيس اليمني الذي كان يحكم مكة. وفي ذلك العصر كانت هذه المدينة تحت سيطرة قبيلة خزاع القادمة من اليمن حوالي العام ٢٠٠. وبفضل هذا التصاهر تسلم قسي إدارة إحتفالات الحج.

وإثر موت حميه، جمع قسي جميع القبائل القريشية المجاورة تحت قيادته. وبعد معارك متعددة نجح في طرد الخزاعيين اليمنيين.

بإستيلاء قسي على مكة حصل على حراسة الكعبة ومنح نفسه إمتيازات تابعة لها فخصص ملكيتها لعائلته التي لا تزال تحتفظ بها حتى يومنا هذا. وكان القريشيون، كأسلافهم في مكة، يعيشون موزعين في خيام وسط الجبال والصحارى المجاورة، فجمعهم قسي في بيوت شيدت حول الكعبة حيث إستقروا. وقد أصبحت المكاسب العائدة من حراسة الكعبة هامة. فمنذ عهد إسماعيل كانت الكعبة والحجر الأسود يجتذبان الحجاج من وسط الجزيرة العربية.

وبالإضافة إلى خدمة الكعبة إهتم القريشيون بحيوية بالتجارة. «فقد أخذت التجارة البرية بواسطة قوافل الجمال بين اليمن وسورية والعراق تشهد إزدهاراً. وحوالي العام ٦٠٠ م. أصبحت هذه التجارة في معظمها تحت سيطرة قريشي مكة الذين لم يعودوا بدواً؛ غير أن تجارتهم كانت تتطلب أحلافاً وغيرها من العلاقات مع العديد من القبائل البدوية»[٢٠]، كون هؤلاء البدو وحدهم كانوا

20 W. Montgomery Watt, «Badw»,'*Encyclopédie de l'Islam,* Nouvelle Edition, I. p. 916.

قادرين على قيادة قوافل البضائع وضمان أمنها عبر الصحارى. حتى أن هذه القبائل كانت تتعاطى التجارة على نطاق واسع. فإنحطاط مملكة اليمن حوالي ذلك العصر سمح لأهل مكة بالإستئثار بتجارة القوافل نحو بلدان الهلال الخصيب.

وبعد وفاة قُسي توزع أبناؤه بطريقة حبية المغانم المتعلقة بمهامه. فهاشم وهو حفيد قُسي وجد الأسرة الهاشمية التي إستمرت حتى يومنا هذا غدا الرئيس السياسي على مكة. فيما ترك إبنه وخلفه عبد المطلب أبناء عديدين منهم عبدالله والد النبي محمدﷺ مؤسس الإسلام.

وفي القرنين الرابع والخامس شهدت المسيحية تقدماً في وسط جزيرة العرب حيث لاقت العقيدة النسطورية القادمة من بلاد ما بين النهرين والعقيدة المونوفيزية القادمة من سورية ومصر والحبشة إقبالاً خاصاً. فيما إنتشرت أيضاً اليهودية في جزيرة العرب حيث كانت يثرب(المدينة لاحقاً) أحد مراكزها.

ج ـ مكة والمدينة قبل الإسلام

كانت ثلاثة مراكز حضرية موزعة من الجنوب إلى الشمال تنتصب على الطريق البرية المؤدية من اليمن إلى سورية ومصر وبلاد ما بين النهرين إنها: مكة ويثرب(المدينة لاحقاً) وتيماء. وفيما عدا هذه المراكز فضلاً عن مدينتين أخريين هما عكاظ والطائف فإن أي تجمع حضري لم يلعب على ما يبدو، أي دور هام في تلك المساحات الواسعة من وسط الجزيرة الصحراوي. وإذا كان من مدن أخرى، وهو أمر غير مستبعد بخاصة في بلاد نجد حيث العوامل الجغرافية والمناخ يساعدان على نمو مراكز زراعية وحضرية، إلا أن أهميتها تبقى محلية، لا شأن لها نسبياً.

مكة .ـ إن إسم مكة قد يكون مشتقاً من الكلمة الأشورية أو البابلية «مكّ» التي تعني «بيت» وهو إسم الكعبة لدى العرب. وقد رأينا أن الإسم السامي «بيت إيل» هو إسم الحجر المعتبر مسكناً للإله. فمكة قد تكون إذن «البيت» في إشارة محتملة إلى المعبد الذي تحتضنه أو نظراً إلى كونها أول تجمع سكني شيّدت فيه بيوت من حجر في صحارى الجزيرة العربية المغطاة بمضارب الخيام.

إن السكان الأوائل الذين إستقروا في مكة حول نبعها المعروف ببئر زمزم قد يكونون إحدى عشائر العماليق وهم من العرب البائدين أو المهاجرين

عادوا من بلاد ما بين النهرين حاملين معهم الإسم البابلي ملك. وجاءت قبيلة الجرهوم وهي قبيلة من العرب العاربة لتضاف إلى قبيلة العماليق. وإن إسماعيل إبن إبراهيم وجد العرب العدنانيين أقام بحسب الرواية العربية، كما رأينا، لدى قبيلة جرهوم وتزوج من فتاة جرهومية مكية فولدت له ذرية كبيرة. وفي مكة توفي إسماعيل ودفن فيها بعدما شيّد معبداً لإله أبيه إبراهيم.

إن العدنانيين أو الإسماعيليين، وقد إنتزع منهم اليمنيون سدنة مكة في حوالي مطلع القرن الثاني ق.م.، إستعادوا تلك السدنة ومقاليدها حوالي مطلع القرن الخامس ب.م. بفضل قسي القريشي. ومنذ ذلك التاريخ ظل إزدهار مكة مطرداً. فهذه المدينة التي نظمها القريشيون النافذون على شكل «جمهورية تجارية» غدت نقطة إنطلاق لقوافل منتظمة بإتجاه الشرق والشمال والجنوب.

يثرب(المدينة لاحقاً).ـ إنها مدينة ـ محطة على طريق الشمال وهي تبعد ٤٠٠ كيلومتر عن مكة. وقد يكون سكانها الأوائل بحسب ما أوردته الروايات العربية من العماليق أو العرب العاربة الذين لم يهاجروا.

وفي زمن موسى فإن هجرة إسرائيلية كثيفة إستهدفت تلك المدينة فطردت العماليق من يثرب وحلت محلها وجعلت من المدينة مركزاً تجارياً غنياً وهاماً. وفي أيام اليونان والرومان كان اليهود المضطهدون في فلسطين يرون فيها ملاذاً وحماية لذا نشأت فيها قبائل يهودية عديدة. إن المدينة التي ألحقت بمملكة أنباط بترا، وبعد تحويل تلك المملكة إلى مقاطعة رومانية (١٠٦ب.م.)، ظلت تحت سيطرة الملوك العرب الأنباط الذين نقلوا مركز سيادتهم نحو الجنوب على الأرجح إلى مدينة تيماء بين بترا ويثرب. وقد كانت لغة سكانها، على الأرجح، الآرامية منذ ضمها إلى مملكة الأنباط العربية ـ الآرامية.

وحوالي القرن الثالث ب.م. كانت قبيلتان يمنيتان وهما الأوس والخزرج، وقد هزمتا يهود يثرب، قد سيطرتا على المنطقة معيدتين إليها طابعها العربي. لكن اليهودية ظلت سائدة فيها. وقد تواجهت القبيلتان اليمنيتان طوال فترة طويلة في صراعات ملحمية ونشبت صراعات أيضاً بينهما وبين قريشيي مكة. ولكن وفي العام ٦٢٢ إنتقل النبي محمدﷺ الذي كان على نزاع كبير مع قريش إلى المدينة (الهجرة) وجعل مقره بين القبائل اليمنية في تلك المدينة التي كانت تضمر الكراهية لأهالي مكة فصارت من أوفى أتباع النبيﷺ (الأنصار). (وقد بدأت يومها السنة

الهجرية أي هجرة النبي من مكة إلى المدينة وبدء إنتشار الإسلام). وبفضل مساعدة أبناء تلك القبائل اليمنية للنبيﷺ نجح في إخضاع مكة لشريعته.

إن التنافس الدهري بين اليمنيين والحجازيين والذي تمثل في الحجاز في العداء بين يثرب ومكة هو من القدم قدم هذين الشعبين المختلفين كلياً. ففضلاً عن الفوارق الأساسية الناجمة عن إختلاف نمط عيشهم فإن حضر اليمن وبدو الحجاز يتميزان عن بعضهما بعضاً، كما رأينا، بإختلاف لغتيهما. وبرغم أن لغة كل منهما كانت ذات أصول سامية واحدة إلا أنهما كانتا تختلفان في أمور عديدة. كما أن معتقدات اليمنيين الدينية وأسماء العلم لديهم كانت تجعلهم بالأحرى أقرب إلى الساميين البابليين منهم إلى الحجازيين.

د ـ أمبراطورية كندة السريعة الزوال في بلاد نجد(٤٦٠ ـ ٥٣٠ب.م.)

وحوالي منتصف القرن الرابع ب.م. هاجرت قبيلة عربية قوية هي قبيلة بني كندة إلى وسط الجزيرة العربية وإستقرت عند الطرف الجنوبي الشرقي من بلاد نجد وسط قبائل بني معاد. وحوالي العام ٤٦٠ بات حجر عقيل المرار (٤٦٠ ـ ٤٧٨) رئيس قبيلة بني كندة، الذي نجح في إخضاع بني معاد وسواها من الشعوب البدوية في نجد إلى سلطته، يحكم تحالفاً من القبائل في وسط الجزيرة العربية وكان على صلة وثيقة بملك اليمن الحميري. وكان حجر ملك كندة وقبائل ربيعة وبكر وغيرها يشن الهجمات ضد مملكة العرب اللخميين في الحيرة الذين كانوا تابعين لملوك الفرس وتقع مملكتهم على تخوم الفرات الأسفل. وبعدما نجح هذا الملك الكندي في تجريد اللخميين من بعض ممتلكاتهم لُقّب « بملك عرب نجد وتخوم العراق»، وكانت أراضيه تمتد من حدود اليمن جنوباً حتى حدود مملكة اللخميين شمالاً ضامةً القسم الأكبر من جزيرة العرب الوسطى بما فيها منطقة اليمامة الخصبة جنوب بلاد نجد.

وفي أيام عَمر المقصور (٤٧٨ ـ ٤٩٠) إبن حجر وخلفه فإن قبيلة ربيعة نجحت في التخلص من وصاية الملك الكندي عليها وقد قتل هذا الملك في معركة ضد قبيلة ربيعة.

الحارث (٤٩٠ ـ ٥٢٦)، هو إبن عمر وخلفه، حمل قوة سلالة كندة إلى الأوج. فعقد تحالفاً مع البيزنطيين موجهاً ضد الفرس وتابعيهم اللخميين وقام بحملات عديدة ضد اللخميين. وأرضخ قبائل عدة كانت قد ثارت ضد

والـده ونجح في جمع قبائـل نجـد العـربيـة تحت سلطتـه وقـام بهجمـات عـلى أراضي فـارس فضلاً عن أراضي البيـزنطيـين. ثم عقد صلحـاً مع البيـزنطيـين وهاجم لخمي الحيرة وأصبح سيداً عـلى كل عـرب العراق (٥٠٥) وقـد إعترف المنذر، ملك اللخميين، بسيادته وتزوج من إبنته هند.

وفي العام ٥٢٥ إضطر الحارث للتخلي عن بـلاد الحيرة حيث قبض المنـذر عـلى بعض أفراد عـائلته وقتلهم. ثم تقـرب الحـارث من البيـزنـطيـين وأصبـح حليفـاً لهم وإعترف بـه الأمبراطـور زعيماً عـلى العرب (فيلارك). وعشية وفـاته العـام ٥٢٦ كانت أمبـراطوريتـه تضم كل بـلاد نجد وجـزءاً كبيـراً من الحجـاز والبحرين واليمامة.

قسم الحارث دوله في حيـاته بـين أبنائـه الأربعة الـذين فقدوا مقـاطعاتهم تبـاعاً (٥٢٦ ـ ٥٣٠). أحـد أحفاده وهـو الشاعـر العـربي الشهـير أمـرؤ القيس حـاول عبثاً إستعـادة السلطة بمساعـدة البيزنـطيين. ولمـا أخفقت محاولتـه لجأ إلى البيزنطيين وتوفي في إنسير(أنقرة) العام ٥٥٤.

هكذا فإن مملكـة أو أمبراطـورية كنـدة العربيـة المقـامـة في وسط الجزيـرة العـربية(نجـد) كانت عـلى هشاشـة مملكة الأنبـاط ومملكة تـدمـر ومملكـة غسـان والحيرة وهي ممالك عربية، نصف حضرية كانت تقـوم عند التخـوم الصحراويـة من فلسـطين وسوريـة وبلاد مـا بين النهـرين، ولم تعش مملكـة كنـدة سـوى مـا يقارب ٧٠ سنة(٤٦٠ ـ ٥٣٠).

٣ ـ جنوب الجزيرة (اليمن، حضرموت، إلخ. . .)

أ ـ عموميات

إن اليمن، وخـلافاً للحجـاز ووسط الجـزيـرة العـربيـة اللذين همـا بـلاد سهـوب وصحارى، هي بـلاد جبليـة تـرويهـا أمـطار مـوسميـة. وأمـا تكـوينهـا الجغرافي ومناخها وموقعها المميز بين الهند والحبشة ومصر وسـورية وبـلاد ما بـين النهـرين جعل منهـا ومنذ العصـور الأولى مركـز حياة زراعيـة ومدينيـة ومنـطقـة نشـاط تجاري متـطور جداً. وهـذه الظروف شجعت منـذ القدم عـلى نشؤ دول حضرية منظمة ومتحضرة فيها.

لكن مـع الأسف لم يصلنا شيء من تلك الحضـارة القـديمـة سـوى بعض الخـرائب والنقوش. وإن المعلومـات القليلة التي نعرفهـا عن هـذا البلد العـريق

إنما يعود الفضل بها إلى اليونان القدماء والتوراة. لأن عرب وسط الجزيرة العربية لم يحدثونا إلا عن دولة يمنية واحدة حديثة نسبياً هي دولة حِمير.

إن أقدم ما تناهى إلينا من أخبار المؤرخين والجغرافيين اليونان حول شعوب جنوب الجزيرة العربية لا ترجع إلى أبعد من القرن الثالث ق.م. وأما التوراة فلا تأتي على ذكر سبأ أو شبأ (اليمن) إلا من الوجهة التجارية وتشير إلى الزيارة التي قامت بها ملكة هذا البلد إلى سليمان حوالي منتصف القرن العاشر ق.م.

وأما أخبار المؤرخين والجغرافيين العرب عن اليمن القديمة فتشوبها الأساطير والقصص الأسطوريّة التي لا يمكن منها إستكناه الحقيقة. فيما القرآن يأتي على ذكر الرواية العربية حول ملكة سبأ من غير أن يسميها. غير أن الذين تولوا تفسير القرآن هم الذين أعطوها إسم بلقيس وهي أقدم ملكة في قوائمهم الزمنية.

في اليمن القديمة يمكننا التعرف إلى ثلاث دول كبيرة تعاقبت حتى الإسلام وهي ممالك معين وسبأ وحِمَير.

فالمراحل الثلاث المتعاقبة التي شهدت نمو هذه الدول الثلاث يعتبرها المؤرخون العرب على أنها عصر طويل من البربرية والفوضى. وفي الواقع فإن يمن ما قبل الإسلام عرف ومنذ أقدم العصور حقبة تاريخية طويلة وسلسلة من القرون كان اليمن خلالها يتمتع بحضارة مدينية مزدهرة وكان فيه تجمعات مدينية ويمارس شعبه الزراعة والتجارة مع الخارج كما كان فيه حكومات شرعية ومنظمة. إن الإكتشافات الحديثة أثبتت اليوم وجود تلك الحقائق في الماضي التي يبدو أن عرب الإسلام تجاهلوها. فالحضارة اليمنية القديمة تشبه الحضارة التي سبقت كولومبوس في المكسيك بحيث لم تترك سوى صدى ضعيف في أساطير من جاؤوا بعدها وخرائب يجهد المستكشفون وعلماء الآثار في تبين معالمها أو فك طلاسمها. وبفضل هؤلاء العلماء ومن سبقهم من مؤرخين يونان وتوراة أمكننا اليوم إعادة إحياء ماضي اليمن القديم.

إن بلدان العربية السعيدة (اليمن) في الجنوب، هي مثل بلدان الهلال الخصيب في الشمال، عانت باستمرار ومنذ فجر التاريخ من ضغط جيرانها بدو الصحراء العربية الذين كانوا يحاولون دوماً التسلل إلى داخل المناطق المزروعة لغزو السكان أو السيطرة عليهم أو الإستقرار بينهم.

«لقد نشأت دول منظمة في جنوب الجزيرة العربية خلال النصف الثاني من الألف الأول ق.م. وكان أهمها أربع دول هي ـ سبأ بلاد السبئيين ومعين بلاد المينيين، وكتبان وحضرموت ـ وكانت تعيش من الزراعة والتجارة. إن سد مأرب في مملكة سبأ كان البناء الأضخم في شبكة ري هي في غاية الإتقان. وخلال قرون إحتكر تجار الجنوب العربي تجارة البخور وأشرفوا على حركة المرور التجارية بين الهند والغرب. فكانوا يرسلون بضائعهم على طرق برية تجتاز الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال.

وأنشأوا مستوطنات لهم في شمال الجزيرة العربية... وهاجر بعض أبناء جنوب الجزيرة إلى الحبشة فأعطوها إسمها وإمتد نفوذهم على طول الشاطىء الشرقي في أفريقيا. وفي الجنوب العربي كانت تقوم معابد عديدة مهيبة مكرسة لآلهة وثنية. وإن أقدم ملوك سبأ الذين حملوا لقب مقرّب كانوا يقومون في الوقت نفسه بمهامهم كملوك وكهان ثم تخلوا فيما بعد عن مراكزهم لسلطة ملوك غير دينيين.

وحوالي نهاية القرن الثاني ق.م... تعلم الغربيون(اليونان) سر إستخدام الرياح الموسمية من أجل الإبحار في عرض البحر. وكانت مملكتا معين وكتبان قد زالتا في القرن الأول ق.م... وإن روما التي جعلت من بترا دولة تابعة العام ٦٠ق.م. كانت تطمع بثروات العربية السعيدة. لذا أرسل أغوسطس والي مصر إيليوس غالوس فشرع العام ٢٤ بمساعدة أنباط بترا بزحف طويل برّاً نحو بلاد البخور ولكن حملته التي واجهتها صحارٍ قاحلة لم تتمكن من تجاوز مملكة سبأ»[٢١].

«وفي القرن الرابع ب.م. نجح عرب وسط الجزيرة في التغلغل داخل الجنوب العربي وربما على الطريق التي كانت تسلكها تجارة البخور. وقد ورد ذكرهم في النقوش السبئية تحت إسم الأعراب فكانوا يشكلون جزءاً لا بأس به من السكان الذين كان الجزء الآخر منهم يتألف من السكان الأصليين الحضر. وتظهر أهمية هؤلاء العرب بذكرهم في مجموعة (بروتوكول) ألقاب خاصة بملك سبأ»[٢٢].

«بيد أن تردي تجارة البخور (بدءاً من القرن الرابع؟) ثم زوالها (في الخامس على أبعد تقدير) إضطر فئة من سكان الجنوب العربي للعودة إلى حياة البداوة. وقد وصل بعض تلك القبائل إلى منطقة نجران فضلاً عن وسط الجزيرة العربية كقبيلة

21 G. Rentz, *op. cit.*, p. 565,566.
22 A. Grohmann, *op. cit.*, p. 542.

كندة. وفي مجمل القرن السادس لوحظت هجمة نحو الشمال عجلت إليها منذ البدء حملات ملوك كندة»[٢٣].

ب ـ الأجداد الأسطوريون

إن عاد هو إبن أوس بن آرام بن سام بحسب البعض وإبن حام بحسب الآخرين، قد يكون جد العرب الأوائل. وقد أقام في اليمن. فيما شداد، وهو أحد المتحدرين من عاد، أخضع العراق لنفوذه. وهناك شداد آخر إحتل مصر وإختار عور أو الأعور(افاريس؟) عاصمة لها. وقد رأينا أن قبيلة عاد تنتمي إلى المجموعة الآرامية من العرب البائدين أو المهاجرين.

إن هؤلاء «العاديين» أو العرب الحقيقيين تركوا في الأساطير العربية أثراً يشبه الأثر الذي تركه الجبابرة(السيكلوب) في الأدب الإغريقي. وقد أهلكهم الله لأنهم لم يصغوا إلى إرشاد النبي هود الذي أرسله الله إليهم لهدايتهم عن كفرهم. وإن دمارهم أو بالأصح زوالهم من اليمن مرده، بالأحرى وبحسب ما تروي القصص الأسطورية حول فتوحات الشدادَيْن، إلى هجرتهم وإقامتهم في بلدي الفرات والنيل الحضريين. وقد يكونون جزءاً من أموريي بابل وهكسوس مصر.

وإن جزءاً من العاديين أو العرب الأولين الباقين الذين إستقروا في منطقة سبأ (اليمن) كوّنوا الشعوب العادية الثانية. وإن إولئك العرب الباقين سيقومون لاحقاً بتعريب القبائل التي سوف تدخل شبه جزيرة العرب. وكان أول ملوكهم لقمان ومستبقى سلالته في الحكم طيلة نحو الف سنة.

ج ـ مملكة معين(حوالي ١٥٠٠ق.م.)

إن المعينين، الذين خلفوا السلالة العادية وهي سلالة أواخر خلفاء لقمان، هم أحفاد العماليق الذين لحقوا أبناء جنسهم الأموريين إلى بلاد ما بين النهرين ثم عادوا فغادروا ذلك البلد إثر سقوط سلالة حمورابي وإستيلاء الآريين الكاسيين على السلطة في بابل حوالي العام ١٧٥٠ق.م.

وقد أشار المؤرخون اليونان إلى معينيي اليمن فسموهم المينيين وكانوا مجهولين من المؤرخين العرب. وهؤلاء مثل فينيقيي لبنان أسسوا دولة تجارية كان مركزها في مدينة معين. وقد أظهرت الإكتشافات الحديثة أسماء العديد من

23 W. Caskel, «al-Arab», *Encyclopédie de l'Islâm*, Nouvelle Edition, I, p. 544.

ملوكهم. وقد بسطوا سيادتهم على كل جزيرة العرب بما فيها سواحل الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر. وكانت تجارتهم تمتد شمالاً حتى العربية الصخرية وحوران. فيما كانت أبجديتهم قريبة من أبجدية الفينيقيين ولغتهم سامية. وإن أسماء العلم والمعتقدات الدينية لديهم تجعلهم يمتون بالقربى إلى البابليين مما يؤكد أصلهم المابينهري.

د ـ مملكة سبأ(حوالي العام ٩٠٠ق.م.)

وكما كان للحجازيين وسواهم من عرب وسط الجزيرة بطلهم الأسطوري الذي هو جدهم عدنان كذلك كان لليمنيين أو عرب الجنوب بطلهم الأسطوري الممثل بشخص قحطان. فالقصص الأسطورية التي يبدو أنها تجهل وجود دولة معين التي تطرقنا إليها آنفاً أتبعوا حكم سلالة العرب العاربة أي أواخر المتحدرين من لقمان العاديين والذي دام ألف سنة بحكم سلالة ملكية جديدة متحدرة من قحطان البطل الأسطوري وجد عرب اليمن.

إن قحطاناً هذا قد يكون تعريباً لإسم يقطان أحد أبناء سام. وقد يزعم البعض بأن القحطانيين هم أحباش إستوطنوا في اليمن. فالإسمان الحبشيان(حِمير وطوباه) اللذان أعطيا عدداً كبيراً من أمرائهم يجعلان ذلك الزعم معقولاً. كما أن آخرين يضيفون بأنهم قد يكونون من سلالات تلك القبائل السامية التي لحقت مغامرة الهكسوس في مصر والتي بعد طرد هؤلاء منها إنسحبت عائدة بعضها إلى فلسطين(الإسرائيليون) والآخرون إلى جزيرة العرب عن طريق الحبشة.

ويعترف العرب أنفسهم بأن القحطانيين هم دخلاء إلى تلك الجزيرة تعربوا وقد يكون تعربهم هذا تم بفعل إختلاطهم بالمعينيين الذين أصبحوا عرباً بعد إختلاطهم بأواخر العاديين.

وقد كان يعرب إبن قحطان هو أول ملوك هذه السلالة الجديدة. ولكن مؤسس المملكة القحطانية الحقيقي هو سبأ إبن يعرب الذي أعطى إسمه إلى المملكة الجديدة. وإن إرتقاءه العرش يعود إلى منتصف القرن التاسع ق.م. لكن مع أن ملكة سبأ التي، بحسب التوراة، زارت سليمان(٩٧٤ ـ ٩٣٢) هي ملكة يمنية إلا أن نشأة مملكة سبأ ينبغي إعادتها إلى تاريخ يسبق العام ١٠٠٠.

إن مملكة السبأيين، وعلى غرار مملكة أسلافهم المعينيين، كانت دولة تجارية.

وكانت علاقاتها التجارية تمتد إلى الحبشة وإلى شمال شبه جزيرة العرب. وكانت عاصمتها سبأ(مأرب) قرب صنعاء عاصمة اليمن الحالية.

إن الإزدهار المادي الذي كانت تتمتع به مملكة سبأ كان يتناقض مع فقر البلاد العربية المجاورة لها في الشمال. ففضلاً عن التجارة كان اليمنيون يعملون في الزراعة وينتجون البهارات والطيوب التي كانت جد مطلوبة في العالم القديم. وكانت مدن عدة تزينها قصور فخمة تجعل من اليمن بلداً ذا حضارة مدينية كبيرة.

إن بلاد اليمن تفتقر إلى الأنهار لكن أمطارها غزيرة خلال الشتاء لذا إستخدم فيها نظام ري يعتمد على السدود التي تختزن مياه السيول أيام الشتاء لإستخدامها في الري خلال الفصل الحار. ونظام الري هذا جعل من اليمن القديمة بلداً غنياً ومزدهراً قياساً إلى المناطق القاحلة المحيطة به.

لقد تم بناء سد مأرب الشهير أيام ملوك سبأ الأوائل وكان للدور الذي لعبه هذا السد ومن ثم دماره موقع هام في تاريخ اليمن القديم. إن أسطورة هذا السد التي يوردها القرآن الكريم والذي يعطيه الإسم الحميري عريم(سد) تذكر أن ملكاً يمنياً هو لقمان، أو بحسب رواية أخرى الملكة بلقيس، أمر بإقامة سد من الحجارة بين جبلين لإحتواء مياه السيول التي تنحدر من الهضاب العليا. وكان أن خيّم خصب كبير على بلاد اليمن بعد إنجاز ذلك السد لكن إنهيار السد الذي أثر كثيراً على مخيلة العرب، كان كارثة حقيقية إذ حوّل البلاد إلى صحراء واسعة. وهذه الكارثة التي وقعت فعلاً حدثت في مطلع القرن الثاني ق.م. لكن لا يبدو أن دمار هذا السد كان نهائياً وسنرى أن ذلك السد، وخلال القرون التالية، سيكون موضع إصلاحات متعددة.

إن الروايات العربية تقرن بإنهيار سد مأرب نهاية الإزدهار في الجنوب العربي. وتعزو إليه هجرة مجموعات زراعية ومدينية عديدة من أبناء اليمن نحو وسط الجزيرة وشمالها بعدما تخلت عن حياة الحضر لتعود إلى بداوة الصحراء.

في الحقيقة إن حركة الهجرة هذه إنما أحدثها بالحري تردي التجارة الذي أصاب اليمن في ذلك العصر بعدما أفلت الزمام على البحر الأحمر من يدها وإنتقل إلى يد بطالسة مصر الأغارقة.

«وقد أظهرت إكتشافات أثرية وجود سلسلة من الأعطال في نظام الري

ويعتقد بأن تلك الأعطال كانت نتيجة لأعراض التردي الذي ضرب الجنوب العربي وليست أسبابه»[٢٤].

هـ ـ مملكة حِمير (١١٥ق.م. ـ ٥٢٥ب.م.)

«ويظهر سبأ من خلال القوائم التي وضعها علماء الأنساب العرب على أنه إبن حفيد قحطان ووالد حِمَير وكهلان، وهما الجدان اللذان أعطيا إسميهما للفرعين الرئيسيين من فروع عرب الجنوب. فشعوب دول الجنوب القديمة ـ السبأيون والمعينيون وسواهم ـ كانت تعتبر من سلالة حِمَير إلى حد أن كلمة حِمَير غدت باللغة العربية الكلمة العامة التي تشمل حضارة تلك الدول قاطبة»[٢٥].

وبدءاً من نهاية القرن الثاني ق.م. أصبح ممكناً سرد الأحداث التاريخية بحسب تسلسل تقريبي في اليمن. لكن القصص الأسطورية ظلت مستمرة في زخرفة السرد التاريخي خلال ذلك الجزء المتبقي من الفترة السابقة للإسلام.

وحوالي العام ١١٥ ق.م. ضم ألهان (١١٥ ـ ٨٠) ملك سبأ، مملكة ريدان وإتخذ لقب «ملك سبأ وريدان». إن ألهان، وهو سليل حِمَير وإبن يعرب كان إذن عربياً قحطانياً. وقد أقام مناوبة، وهكذا فعل خلفاؤه من بعده، في ريدان (ظفار) وفي سبأ (مأرب). وعلى النقيض من أسلافهم السبأيين والمعينيين الذي تعاطوا بشكل رئيسي التجارة وأعمال السلم فإن الملوك الحِمَيريين كانوا ميالين أكثر إلى الحرب والفتوحات. ومنذ مطلع عهدهم خضع كل جنوب الجزيرة إلى حكمهم.

وحوالي العام ٢٧٥ب.م. ضم الحميريون حضرموت وإتخذ ملكهم لقب «طوباه» وأيضاً «ملك سبأ وريدان وحضرموت». وإن إسم طوباه يطلقه العرب على جميع ملوك هذه السلالة كما يطلق اسم فرعون على جميع ملوك مصر القدماء.

إن أول ملك(طوباه) حميري كان شمر ياراش(٢٧٥ ـ ٣٠٠) الذي ضم حضرموت وبسط سيادته على معظم جزيرة العرب. وتروي لنا أساطير خرافية قصص فتوحاته الخارقة خارج بلاد العرب حيث أن شمّرا غزا إيران وأسس فيها مدينة سمرقند التي ستحمل إسمه ثم إحتل الشرق البيزنطي. وإحتل إبنه

24 Montgomery Watt, *op. cit.*, p. 916.
25 G. Rentz, *op. cit.*, p. 561.

أفريكاس(٣٠٠ ـ ٣٢٠) الملقب« بذي القرنين» أفريقيا الشمالية وأعطى إسمه أفريقيا إلى تونس. وأما بلقيس(٣٣٠ ـ ٣٤٥) ملكة سبأ الشهيرة فهي إبنة أحد أولئك الطوباه العظام وتعزو إليها الأسطورة بناء سد العريم (مأرب). ثم جاء بعدها أبو كريب أسعد(٣٨٥ ـ ٤٢٠) فإجتاح أذربيجان وسحق الأتراك وهزم الفرس وتقدم بجيوشه حتى الصين وفرض سيادته على بيزنطية وحاصر روما حتى قضى الطاعون على جيشه.

إن الحملات العسكرية المدهشة التي قام بها أفريكاس الملقب بذي القرنين وحملات أبي كريب أوليست هي ترداداً خيالياً لملحمة الإسكندر الأكبر المقدوني الذي لقبه الشرقيون هو أيضاً بذي القرنين؟

لكن لا بد من الإعتراف بأنه، وفي أيام حكم أبي كريب، فإن جزءاً كبيراً من بلاد العرب الوسطى كان خاضعاً لسلطته « وقد إزدادت ألقابه وأصبحت ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت «واليمنة» وأعراب الأراضي المرتفعة فيها (داخل وسط الجزيرة) وتهامة (منخفضات الحجاز وعسير)». ومن جديد بتنا نلاحظ أن وحدهم سكان العربية الصحراوية كان يشار إليهم بإسم أعراب أو العرب»[٢٦].

وكانت الحروب بين اليمنيين والأحباش مستمرة وبخاصة منذ العهد المسيحي. وبدءاً من القرن الرابع ب.م. كان ملوك أكسوم المسيحيون وحلفاء اليونان ـ الرومان يتنازعون مع الفرس على النفوذ في اليمن. وقد إحتل الأحباش مرات متكررة المملكة الحِمَيرية. وتشير نقوش أثرية في أكسوم في الحبشة إلى ألقاب الملك الحبشي على الوجه التالي: «ملك أكسوم وحِمير وريدان وأثيوبيا وسبأ» وغيرها من الأماكن.

وقبل العام ٥٠٠ جاء مرسلون مسيحيون سوريون وحولوا نجران إلى المسيحية وإنتشر الدين المسيحي منها إلى داخل اليمن. وإن الملك الحِمَيري ذا نواس(٥١٥ ـ ٥٢٥) الذي إعتنق اليهودية كرهاً بالأحباش قام بحملة ضد نجران وأمر بإضطهاد المسيحيين. وإستغل الأحباش تلك الأحداث ليتدخلوا مجدداً في اليمن فإحتلوا ذلك البلد وأزالوا المملكة الحميرية(٥٢٥).

وتحت السيادة الحبشية التي دامت نحو ثلاثة أرباع القرن(٥٢٥ ـ ٦٠١) فإن سد مأرب الشهير الذي كان قد دمر العام ٥٤٢ أعيد بناؤه العام ٥٤٣ بفضل

26 H.von Wissmann, *op. cit.*, p. 911.

إهتمام نائب الملك الحبشي أبرهة. وهناك نقش طويل إكتشفه العالم جلازر في خرائب السد يخلد ذكرى ذلك الحدث. ويبدأ بالتضرع إلى «نعمة الله الرحـوم والعطوف ومسيحه والروح القدس»[٢٧].

وقد بنى أبرهة في صنعاء التي إختارها كعاصمة له كنيسة مسيحية رأى العرب فيها دلالة على السيادة الأجنبية. فتذرع أبرهة بحجة أن عربياً من مكة قام بإنتهاك حرمة تلك الكنيسة ومشى بجيشه ضد مكة. فهزم في معركة الفيل(٥٧١) وقد إعتبرت تلك المعركة عند العرب بداية عهد جديد يدعى « عهد الفيل».

وللتخلص من النير الحبشي إستنجد اليمنيون بالفرس الذين وضعوا حداً للسيادة الحبشية في الجزيرة(٦٠١).

وكان آخر حاكم فارسي في اليمن إعتنق الإسلام مع مواطنيه في أيام النبي محمدﷺ (السنة ١٠ هجرية).

27 Cité par G. Zaydân, *Les Arabes avant l'Islâm,* (en langue arabe), p. 147.

٧. حضارة عرب ما قبل الاسلام الجاهلية ودينهم

تتوقف حضارة شعوب جزيرة العرب في مرحلة ما قبل الإسلام، كما تاريخهم، على ما إذا كان الأمر يتعلق بالشعوب البدوية أو نصف البدوية في وسط الجزيرة العربية(الحجاز والهضبة الوسطى) أو بالتجمعات الحضرية في جنوب الجزيرة(اليمن، إلخ. . .)

١ ـ الوسط العربي في حجاز ما قبل الإسلام.

إن المسلمين يطلقون على المرحلة السابقة للإسلام من تاريخ جزيرة العرب إسم الجاهلية(من الجهل والبربرية) وهذه الكلمة المسيئة لا ينبغي أن تنطبق، كما أسلفنا، إلا على حياة العرب الخلقية والدينية في ذلك العصر: حيث كانوا يعبدون الأصنام وينغمسون في كل النزوات السيئة.

أ ـ الحياة الإجتماعية

إن عربي الجاهلية الوثني لم يكن شخصاً بدائياً ومتوحشاً بل على العكس من ذلك كان يتمتع بخلقية مستمدة من روح القبيلة وتنطوي على الشجاعة والكرم معاً. وإلى جانب العادات البربرية كوأد البنات في أحوال المجاعة والثأر أو عملية القتل الإنتقامي والخوة أو ضريبة الأخوة والحط من قدر المرأة وهي عادات فرضتها عليه حياة الصحراء حيث القحط رهيب وحالة الحرب دائمة فإن البدوي كان يتمتع في المقابل وإلى درجة عليا بصفات خلقية رائعة هي موضع إعجاب كبير في الصحراء ألا وهي: الإقدام في الحرب والمروءة تجاه الضيوف والضعفاء. وكان هذا الشعور بالشرف يحمله على الدفاع عن قبيلته وأسرته وأيضاً على أن يكون شهماً رحيماً مع عدوه وأميناً في وعده ومطيعاً

للزعيم الذكي والشجاع والـمُحِق. إن حب الحرية هو من طباع البدوي، ولكن حرية الصحراء «ليست حرية قومية بل حرية شخصية، حرية أن يقتل المرء جاره أو ربما أخاه بلا ورع من أي سلطة رسمية»[٢٨]. وينتج عن ذلك أن «قيمة الإنسان عند البدوي تقاس بعدد الأقارب الذين يقفون إلى جانبه دفاعاً عنه أو ثأراً له»[٢٩].

وفي ما عدا العربية السعيدة التي هي عالم قائم بذاته وبعض الواحات والمناطق الخصبة التي يعيش فيها حضر وأنصاف ـ بدو فإن البدوي في كل المناطق الأخرى من مساحات جزيرة العرب الشاسعة هو الذي يفرض نفسه ويسيطر على الحضري ويعتبر الجمل، وسيلة نقله، الغاية والوسيلة في حياته البدوية كلها.

إن المجموعة الإجتماعية هي القبيلة وهي تجمع أسر تكون عادة من السلالة نفسها وتحت سلطة شيخ أو أمير يختاره أرباب العيال. لكن تلك الإتحادات ليست قط متينة ولا دائمة بسبب الفردية الشرسة التي يتمتع بها البدوي. فهي تدوم دوام الظروف التي تدعو إليها. والغزو هو العامل الرئيسي في إتحاد القبائل. فالبدوي يلجأ إلى الغزو للتعويض عن نقص موارده وبخاصة في السنوات العجاف فيعمد إلى السلب والنهب وسرقة مواشي القبائل المجاورة. وفي هذا المجال «فهو يتمتع بمزايا لص بإمتياز». إن هذه الحياة الشظفة تنشىء رجالاً يتحملون المشاق ويبرعون في تلافي الكمائن وتحاشي المفاجآت وقد شكلوا تحت لواء الإسلام الفاتح فرقة خيالة لا مثيل لها.

فالغزو والشعر هما الشغل الشاغل بالنسبة إلى الرجل. وأما العمل المنزلي فمن شأن المرأة: كحلب الحيوانات ودقّ الحبوب وإعداد الطعام ونسج أقمشة الخيام والألبسة وجلب الماء في القُرَب المصنوعة من جلود الحيوانات. وتلعب الخمرة دوراً هاماً في حياتهم ناهيك بالميسر (المقامرة) وهاتان آفتان نهى عنهما الإسلام.

إن هذا التنظيم الخاص قائم أيضاً في المدن حيث لكل مجموعة قبلية حيّها. إن قبائل مكة الأربع المتجمعة حول الكعبة يملك كل منها جداراً من جدران المسجد.

28 B. Thomas, *op. cit.*, p. 28.

29 B Thomas, *op. cit.*, p. 10.

وإذا كان العربي البدوي لم ينتج أبداً حضارة مادية فذلك لا يعود إلى عدم أهليته الفطرية بل إلى حياة الترحال التي يحياها والتي لا تسمح له بحمل الأشياء السريعة العطب أو التي يصعب نقلها. « إن حياة البدو الإجتماعية في جزيرة العرب القديمة لا تزال هي نفسها عند البدو المعاصرين الذين لم تتغير حياتهم المادية أبداً»[٣٠].

وفي العربية الصحراوية التي تضم بعض المناطق المزروعة وسلسلة من الواحات ومراكز حضرية كانت بمثابة محطات إستراحة على الطرق التجارية من المحتمل أن يكون ذلك أدى إلى نشوء حضارة مدينية ما. لكن البدوي المولع بالحرية لا يمكن أن يرضخ للضغط الذي تفرضه عليه حياة المدن ويؤثر عليها حياة المرعى. إنه ينبذ الزراعة والمحلات التجارية والمهن التي يعتبر العمل فيها خليقاً بالأرقاء. ويفضل عليها فرض الأتاوات على الحضر أو تأجير خدماته للتجار كناقل بضائع أو مواكب قوافل بين اليمن وسورية وبلاد ما بين النهرين.

ب ـ الكتابة العربية

في وسط الجزيرة العربية كان غالبية السكان العرب أميين بشكل فاضح. وعلى الحدود الشمالية، على تخوم بلدان الهلال الخصيب، كانت قبائل عديدة تمتلك لغة مكتوبة متحدرة من الأبجدية الفينيقية. وبفضل بساطة هذه الأبجدية الفينيقية تبنتها معظم البلدان السامية لا سيما آراميو سورية الذين نشروها في بلدان الشرق والجنوب.

ولدى عرب الحجاز فإن الكتابة التي لم تنتشر في تلك المنطقة إلا في وقت متأخر،كانت أبجدية أيضاً مشتقة عن طريق التطور من الأبجدية الآرامية ـ النبطية المتحدرة بدورها من الأبجدية الفينيقية. فالكتابة العربية الحديثة هي إذن حصيلة سلسلة من الأشكال المتعاقبة التي يعود أصلها وعن طريق الكتابتين النبطية والآرامية إلى الأبجدية الفينيقية.

« إن النقوش الكتابية التي تركها بدو العربية الصحراوية على الصخور والمنتشرة على مساحة واسعة تمتد من نجران حتى سيناء وحدود المنطقة الصفائيتية إلى جنوب دمشق تشكل وحدة..إلا أن هذه الوحدة تبرز فيها

30 Gaudefroy-Demombynes, *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades*, p. 49.

إختلافات إقليمية كبيرة. . . وقد صنفت على أنها كتابات ثمودية برغم أن قسماً فقط من هذه النقوش الكتابية كتبتها قبيلة ثمود في منطقتها حول ريدان شمال غرب الحجاز حوالي العام ١٦ ب.م.). . .

ومن وجهات نظر عديدة فإن تلك الكتابات هي أقدم من كتابات الشعوب الحضرية. فكون تلك الكتابات الثمودية كتبت على ما يبدو من قبل بدو يدل على أن القبائل البدوية لا بد أنها وعت إلى حد ما ترابطها بعضها ببعض وكانت تتمتع بشيء من روح التضامن وإن حياتها بقيت منعزلة وبالحري مستقلة عن حياة دول الواحات الحضرية»[٣١].

ج ـ الحياة الفكرية والأدبية

وإذا كانت الثقافة الفكرية والعلمية شبه منعدمة عند عرب الصحراء إلا أن الشعر على العكس من ذلك هو فنهم الأبرز. فهم، بشغفهم بالأبيات الشعرية الرنانة التي كانت لغتهم طيعة لها، كانوا من كبار ناظمي الأشعار. كما أن نثرهم الموزون والمقفى المعروف بالسجع كان يروي أخبار حروبهم وحبهم وضيافتهم.

« إننا نعرف بخاصة هذه الجاهلية البدوية من شعرها. فالأدب العربي ولد بين هؤلاء البدو. وفي حين إنقرضت لغات الجنوب وإندثرت من غير رجعة فإن لغات الشمال أنجبت اللغة التي ستكون لغة القرآن الكريم والتي ستلعب في كل العالم الإسلامي دوراً مشابهاً لدور اللغة اللاتينية في الغرب. إن هذه اللغة العربية، وبحسب تطورها العادي، تتجلى أولاً في الأشعار. ناهيك بأن الشعراء هم الذين نقلوا إلى بدو الجاهلية الأمثال الحكمية وهي نصوص ذات قيمة شبه مقدسة كانت بمثابة قاموسهم الخلقي وتختصر عقيدتهم الدينية ...»[٣٢].

د ـ الحياة الدينية

كانت تبرز ثلاث إلهات، من بين مجموعة الآلهة المحلية العربية وتشهد على نمط شخصي متميز وهن: اللات والعزة ومنات. فاللات تماثل إلهة السماء السامية الكبرى وإلهة الأمومة والتوليد. وعند ظهور النبي محمدﷺ كانت

31 H. von Wissmann, *op. cit.*, p. 909-910.
32 H Massé, L'Islam, p. 19.

العزة(وهي نجمة الصباح) أكثر الإلهات الثلاث تكريماً. وفي النقوش العربية المعروفة بالصفائيتية(في جنوب شرق دمشق) فإن « اللات كانت تقرن أحياناً بذكر الله أو لاه. . .

ومصادرنا لا تذكر شيئاً عن دور الله قبل محمدﷺ»[٣٣]. أما الإله إيل الذي لاحظنا تعميمه لدى الكنعانيين« فيوجد في كل الأوساط ذات الأصل العربي. . . وما زال مستمراً في كلمة الله»[٣٤].

وفي الحجاز ونجد فالنُصب أو الأحجار المقدسة كانت تكرم كل سنة خلال إحتفالات موسمية تجري في الربيع والخريف. وكانت الأمكنة التي تقوم فيها تلك النصب تعتبر أمكنة مقدسة(حرم) حيث تحرم أعمال معينة وتفرض أخرى في سبيل الوصول إلى حالة من الطهارة الشعائرية الواجبة. وحول تلك النصب وسواها من الأشياء المقدسة الثابتة أو الممكن نقلها كانت تقام طقوس وإحتفالات في إطار طوافات (زياحات). وخلال المعركة الحربية كانت تحمل تلك المقدسات على ظهر جمل يتصف بطابع مقدس. ويقوم عرّافون - وبخاصة عرّافات مماثلات لعرّافات العبرانيين - بالنقر على الطبول وترداد التضرعات المسجعة بصوت مرتفع وهذه التضرعات المسجعة كناية عن جمل مقفاة وموزونة ذات تأثير سحري. وأما العرّافون الذين يفترض أنهم يتلقون علمهم من الجنّ فتتمّ استشارتهم في كل الاعمال الهامة في الحياة.

لقد إنتفض النبي محمدﷺ بشدة في وجه كل تلك الممارسات الوثنية فحرّم السجع على انه شيطاني وأمر بإزاحة هذا النوع من رجال الدين وإلغاء طوافاتهم. ومن جميع تلك التقاليد الدينية القديمة التي كانت متجذرة في الجاهلية لم يُبقِ إلا على الحجر الأسود ومقام إبراهيم بعدما خلع عليهما طابعاً روحانياً فضلاً عن الحج إلى مكة بهدف التبرك منهما.

وإلى جانب عبادة النصب أضيفت عبادة الموتى وبخاصة الجدود المتوفين. وأما الأخذ بالثأر أو الإنتقام للدم المهدور فكانَ يعتبر واجباً دينياً. . . إنه القانون السامي القديم أو شريعة الذّحل: العين بالعين والسن بالسن. وهذا الإلزام سوف يستبدل بدفع الدية أو الفدية عن الدم المراق وقد إعتمدها الإسلام. وهناك ممارسة بشعة أخرى حرّمها الإسلام وهي وأد البنات اللواتي

33 R. Dussaud, *op. cit.*, p. 143.
34 R. Dussaud, *op. cit.*, p. 208.

ربما كن يُعتبرن أفواهاً زائدة يقتضي إطعامها في أوقات المجاعة.

هـ ـ اليهودية والمسيحية في جزيرة العرب أيام الجاهلية

عندما نتكلم عن أتباع الديانتين المسيحية واليهودية في جزيرة العرب في العصر الجاهلي نميل غالباً إلى إعتبارهم، بناء على أفكارنا ومعلوماتنا المعاصرة، وكأنهم عوامل غريبة ومعزولة وسط عالم معادٍ لهم.

لكن في الواقع كان يهود ومسيحيو الجزيرة قبل الإسلام من السكان الساميين الأصليين أي عرباً أهليين يختلف دينهم عن دين مواطنيهم الوثنيين حيث كان لكل قبيلة إلهها الخاص. وإذا كانت بعض العشائر اليهودية أو المسيحية من أصل سوري أو فلسطيني إلاّ أن طابعهم كدخلاء كان، على غرار طابع العرب المستوطنين أو المستعربين، قد زال منذ عهد بعيد. فيهود ومسيحيو الجزيرة العربية كانوا إذن من السكان الأصليين حتى لو كان بعضهم ما يزالون يتكلمون الآرامية أو العبرانية. وبعد الإسلام، الذي هو دين ودولة معاً، صار العربي غير المسلم يعتبر غريباً في جزيرة العرب.

وأما في ما يتعلق بالمسيحيين التابعين لمختلف الكنائس الشرقية فكانت أكبر مجموعة منهم مقيمة في نجران. وأما في سائر المناطق، وبخاصة في مكة، فكان المسيحيون قليلي العدد ويعيشون في الأحياء البعيدة عن وسط المدينة.

وفي المقابل كان تماسك اليهود وتنظيمهم الإجتماعي يعتمدان على وحدة دينية لديهم وتسلسل ديني وطقوس منظمة بدقة. وإذا كانت أهميتهم ليست بالشيء الذي يذكر في مكة إلا أنهم كانوا في المقابل في منطقة يثرب يمتلكون الأرض والرساميل وتالياً النفوذ السياسي.

و ـ البيئة الدينية والإجتماعية في مكة، في مطلع القرن السابع من عهدنا

عشية ظهور الإسلام في القرن السابع (مسيحي)، وفي حين كانت الوثنية ما تزال باقية في الصحراء كانت منطقة مكة الحضرية، التي ورثت جزءاً من إزدهار اليمن الإقتصادي القديم، قد غدت مركزاً تجارياً هاماً وملتقى لجميع أنواع الناس من عرب وأجانب. وإن الحروب شبه المتصلة بين البيزنطيين والفرس، التي كان من شأنها إعاقة المواصلات بين آسيا والعالم اليوناني ـ الروماني، فإنها نقلت حركة طريق الهند ـ المتوسط نحو البحر الأحمر.

إن تلك الأوضاع جعلت من جنوب غربي جزيرة العرب مفترق طرق دُوَلية وطرق قوافل مما ضاعف من إزدهار تلك البلاد. إن مكة، بفضل دورها كمركز ديني كبير وموقعها حول بئر مياه وحيث تمر فيها طرق القوافل، غدت مدينة هامة و« مركز تجمع(نقابة) من الماليين والتجار». « حتى النساء أنفسهن ـ كخديجة الزوجة الأولى للنبي محمدﷺ ـ كانت توظف الرساميل في مشاريع نقل البضائع مما كان يعود بثروات كبيرة على الحجاز . . . وإن النبي محمداًﷺ نفسه بدأ عمله في التجارة ـ التي تركت مصطلحاتها أثراً لها في القرآن الكريم»[٣٥].

«وهكذا غدت مكة بسرعة مقراً لأحد أكبر الأسواق الوثنية حيث يلتقي أهل المدن والبدو خلال الأشهر الحرم التي تعلّق فيها كل عمليات الغزو كما أن هناك سوقاً كبيرة أخرى كانت تقام في عكاظ. . . «وكان يأتي التجار فينصبون خيامهم والبدو يلقون آخر ما جادت به قرائحهم»(لامنس). إذ أن تلك الأسواق كانت معرض مبارزات شعرية كالألعاب التي كان يقيمها الأغارقة قديماً»[٣٦]. ولكن سوق عكاظ التجارية المنظمة على طريق القوافل المؤدية إلى نجد بمناسبة عيد ديني محلي كانت أقل شأناً من سوق مكة ذات الموقع الأكثر نفعاً.

وإلى جانب بل وفوق الآلهة الوثنية كان لدى عرب الجاهلية الإيمان بإله أعلى هو الله خالق العوالم وسيدها. وكان في مكة أيضاً، وقبل ظهور النبي محمدﷺ بقليل، بضعة أشخاص تطلق عليهم تسمية« حنيف» ممن تمكنوا من التحرر من الدين التقليدي للإيمان بإله واحد. وإن القرآن، الذي يأتي على ذكرهم، يشير إلى إبراهيم الخليل بإسم الحنيف.

«ففي هذا الوسط الشديد الحيوية والتنوع وفي مكة حيث أن حمىً التجارة والمصارف لا تخنق الهواجس المشوشة في النفوس المتدينة»[٣٧] ولدمؤسس الإسلام. وفي ذلك الوسط المديني في مكة ويثرب حيث مهد له اليهود والحنفاء الأرضية لعمله، سوف يبشر النبي محمدﷺ بتوحيده الالهي المناقض لعقيدة تعدد الآلهة التي يؤمن بها أبناء جنسه من البدو.

35 Massé, L'Islam, p. 21.
36 Massé, L'Islam, p. 20.
37 Massé, *op. cit.*, p. 23.

٢ ـ اليمن في عصر الجاهلية

أ ـ حضارة زراعية، مدينية وتجارية

إن اليمني، وهو ذلك العربي الحضري، كان قد أعطى كما نعلم حضارة بمثل روعة حضارات شعوب الشرق الأدنى القديمة الأخرى. وكانت اليمن، وهي مركز بالغ النشاط بين الهند ومصر وفلسطين وفينيقيا وسورية وبلاد ما بين النهرين، بلداً يعج بالسكان ومنطقة مرور تجاري بين مختلف تلك البلدان. وإن تجارة الأفاويه جذبت إليه باكراً البضائع والأفكار الآتية من البلدان المتحضرة الأخرى. إن التوراة تحدثنا عن القوافل المحملة بالبخور والأفاويه الثمينة المستوردة من بلاد أوفير(اليمن والصومال). « وكانت الجماعات الحضرية تعيش داخل المدن المسورة وتتعاطى الزراعة والتجارة وتكتب على الخشب وتتهيب الآلهة وتكرم ملوكها. وتظهر من خلال النقوش بأنها كانت منظمة في إمارات مع وجود سلالات أميرية وهيمنات تعود إلى نحو العام ١٠٠٠ق.م.»[٣٨].

وللأسف لم يصلنا شيء من حضارة المعينيين والسبئيين القدماء إلا بعض الخرائب والكتابات وما ترويه عنهم التوراة واليونان من أعمال وأحداث. وأما جيرانهم عرب وسط الجزيرة والذين يبدو أنهم كانوا يجهلونهم فلا يحدثوننا إلا عن آخر دولة يمنية هي مملكة حِمير الحديثة العهد نسبياً (١١٥ ق.م. ـ ٥٢٥ب.م.) التي كانت قد أصبحت في عهد إنحطاطها.

ب ـ الكتابة اليمنية أو كتابة جنوب الجزيرة

تدل كتابات النقوش في القرن الثامن ق.م. على أن السبئيين كانوا يومها يستخدمون الكتابة الأبجدية التي كان يستخدمها الفينيقيون منذ مطلع الألف الثاني كما رأينا. وينقسم المستشرقون حول الجزم فيما إذا كانت الأبجدية السبئية، جدة أبجديات جنوب الجزيرة، هي مشتقة من أبجدية الفينيقيين أم لا. إذ أن الأبجديتين تبديان بعض نواحي الشبه والإختلاف.

ففي رأي السيد دونان أن التقارب بين الأبجديتين يكمن بخاصة في القربى الأصولية بين الشعبين. وأما فرضية أن تكون الواحدة من تلك الأبجديتين ناشئة عن الأخرى فأمر مستبعد نظراً لبعد المسافة الشاسع بين

38 B. Thomas, *op. cit.*, p. 14.

البلدين. وقد يكون التشابه وليد الإقتباس. ولا بد لنا من التذكير هنا مع السيد دونان بأن موجة التوسع العربية الثالثة المعروفة بالعمورية، والتي تدفقت على بلاد ما بين النهرين حوالي نهاية الألف الثالث، أقامت في بابل، كما في بيبلوس، سلالات ملكية يحمل أفرادها أسماء العرب الأولين. فليس مستبعداً في مثل هذه الأحوال أن تكون العلاقات بعد العام ألفين بين أمراء بيبلوس العرب ـ الأولين وبلدهم الأصلي فرصة مناسبة لسبئي اليمن وهم تجار مثل الفينيقيين للإفادة من هذه الأداة الهامة جداً في التداول التجاري ألا وهي الأبجدية. وإن الأبجدية السبئية تشبه فعلاً أبجدية الفينيقيين القديمة مطلع إطلالتها في أوائل الألف الثاني[٣٩].

وقد إستمر الحميريون، الذين خلفوا السبئيين، في إستخدام الأبجدية نفسها التي إستخدمها أسلافهم.

ج ـ الديانة اليمنية

كانت وثنية عرب الجزيرة العربية وثنية« متعددة الآلهة، قليلة التطور». وبرغم الفوارق التي تميز عرب وسط الجزيرة عن عرب جنوبها فإن عباداتهم تظهر مجموعة ميزات مشتركة. فآلهتهم المحلية أو القبلية التي لا تتميز كثيراً عن بعضها بعضاً هي غالباً ذات طابع كوكبي، وكانوا يعتقدون بأنها تقيم في أحجار مقدسة أي نُصُب أو بيت إيل وهذه كلمة سامية مركبة تعني بيت الإله. وقد رأينا تلك الآلهة نفسها لدى الساميين الحضر في الهلال الخصيب: كنعانيين، فينيقيين، إلخ... وبعض الآلهة كالعزة وهي نجمة الصباح (فينوس) تبدو على أنها كانت مكرمة في جميع أنحاء الجزيرة العربية.

وفي الجنوب العربي كانت عبادة القمر، وهو إله مذكر، تتفوق على عبادة الشمس، وهي إلهة مؤنثة. ومن جهة أخرى فإن الآلهة اليمنية: آثار وسين ونكروع تذكرنا بآلهة البابليين: عشتار وسين ومكروع. وأخيراً ففي اليمن، بلد الطيوب، تكرم الآلهة بحرق الطيوب على مذابحها. إن إستخدام البخور الذي يعود إلى مصر واليهود في أزمنة مغرقة في القدم كان مكرساً أيضاً في إحتفالات البلاط البيزنطي وشعائر العبادة المسيحية قبل عصر يوستينيانوس.

39 Voir M. Dunand, *Byblia Grammata*, p. 183-189.

د ـ أسباب إنحطاط اليمن القديمة وإنهيار حضارتها

إن إزدهار اليمن القديم الذي إحتكر طوال قرون عديدة تجارة الجنوب العربي مع آسيا الجنوبية إمتد حتى العهد المسيحي. وبدءاً من ذلك العهد فإن الرومان وإثر فشل حملة أغوسطس على جنوب الجزيرة العربية(٢٤ق.م.) أعادوا إلى البحر الأحمر دوره كطريق تجارية. وقد حظيت مصر الرومانية ثم البيزنطية بالنصيب الأكبر من المرور التجاري في تلك المنطقة وأخذت تتقلص بعدها أهمية اليمن تدريجياً كمركز تجارة دُوَلي.

« إن الحروب الدائمة بين روما وفارس وبين الحبشة وسبأ والتردي الإقتصادي في المناطق المتوسطية والتنافس المتعاظم بين المرور البحري ـ الذي إستبعد منه جنوب الجزيرة ـ وبين العبور والتجارة عن طريق البر فضلاً عن تردي الجنوب العربي الذي بات إقطاعياً ناهيك بالحروب الدينية والإقطاعية داخل البلاد من القرن الثالث وحتى القرن السادس ب.م. كلها أدت إلى حالة إنعدام أمن كبيرة في جزيرة العرب... وحتى مناطق الواحات تردت أو أهملت كلياً وبخاصة في الجنوب العربي... وقد دخلت إليها البداوة التي تعتمد على الجمال،من الشمال إما عن طريق التسلل البطيء أو الهجمات المفاجئة... وتحول جزء من سكان اليمن المزارعين إلى البداوة... وهناك مثل واضح هو نقص الصيانة والتصدع المتكرر الذي كان يصيب سد مأرب، عاصمة سبأ القديمة، ثم إنهياره النهائي وخراب هذه المدينة وواحتها خراباً تاماً... إن السكان البدو كانوا يهملون أكثر فأكثر مراعيهم المعتادة للقيام بهجرات طويلة بإتجاه داخل الجزيرة العربية. وقد هاجرت قبائل بأسرها من الجنوب إلى الشمال بشكل رئيسي... غير أنه كان هناك أيضاً تيار هجرة في الإتجاه المعاكس... وقد ازداد النفوذ البدوي في الجنوب العربي بعد انحطاط قوة الدول المجاورة التي كانت تعتمد على الزراعة والتي كانت بحكم تلك الظروف العصيبة المتمثلة بفلتان الأمن، غير قادرة على إطعام شعبها الكثيف وتلبية حاجاته... فضاعت الكتابة في ذلك الوقت وسط البدو لكن تقليداً شفهياً متمثلاً بالرواة ظلّ مزدهراً»[٤٠].

40 H. von Wissmann, *op. cit.*, p. 911.

VI. لغات الهلال الخصيب ووادي النيل قبل الاسلام

وصفنا آنفاً البيئة الجغرافية والإثنية واللغوية والإجتماعية والثقافية والدينية خلال العصر ما قبل التاريخي والعصر التاريخي في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام.

رأينا من جهة أخرى في الجزء السابق(الثالث) حياة شعوب الشرق الأدنى وتطورهم العام وبخاصة شعوب الهلال الخصيب ووادي النيل عشية الفتح العربي الإسلامي. وقد رأينا أن المسيحية في ذينك البلدين اللذين سيتحولان لاحقاً إلى الإسلام والعروبة منذ نحو أربعة قرون هي الديانة السائدة(بطوائفها العديدة: الطبيعتين والطبيعة الواحدة والنسطورية والمشيئة الواحدة، إلخ...). وأما بالنسبة إلى اللغات الشائعة بين السكان الأصليين، فقد كانت هناك: الآرامية في سورية ـ بلاد ما بين النهرين والقبطية في مصر. وكان إلى جانب تلك اللغات السكانية الأصلية: اليونانية وهي اللغة الرسمية والثقافية في سورية ومصر والفارسية في بلاد ما بين النهرين.

وقبل الشروع بدراسة نشأة الإسلام وإنتشاره خارج الجزيرة العربية لا بد لفهم أفضل للأحداث الكبرى التي ستلي من أن نقول كلمة عن الوسَط اللغوي والثقافي لدى السكان الأصليين في بلدان الهلال الخصيب ووادي النيل عشية فتح العرب الذين سينقلون إلى تلك البلدان دينهم ولغتهم.

١ ـ الآرامية، اللغة الشائعة في الهلال الخصيب

إن الآرامية هي لغة سامية على غرار اللغة الأشورية ـ البابلية والفينيقية والعبرانية والعربية. وهي مثل تلك اللغات تنتمي إلى الجزيرة العربية وتشبه اللغتين الفينيقية والعبرانية وتظهر فيها بعض السمات التي تذكرنا باللغة

العربية. وبرغم أنها أحد أهم فروع اللغات السامية إلا أنها من الناحية الأدبية أدنى مستوى من اللغتين العربيةُ والعبرانية.

فالآرامية كانت أصلاً لغة القبائل البدوية المعروفة بالأخلامو أو «الآراميين الرحل» والذين طوال الألف الثاني خربوا حدود بلاد بابل وأشور وسورية. وبعد إستقرار تلك الشعوب حوالي العام ١٠٠٠ في سورية وبلاد ما بين النهرين حيث أسسوا ممالك عديدة صغيرة فإن لغتهم ما لبثت أن حلت محل لغة سورية السامية ـ الأمورية القديمة. وأكثر من ذلك، فبفضل إنتشار الآراميين وحسهم التجاري وقد كانوا موزعين في مجموعات متناثرة ومنصرفة بخاصة إلى التجارة بواسطة القوافل، فإن لغتهم غدت في النصف الأول من الألف الأول ق.م. اللغة الدُوَلية المعتمدة كوسيلة إتصال بين الشعوب المختلفة اللغات في حوض نهر الفرات ودجلة.

أ ـ الآرامية المشتركة، لغة واحدة(٩٠٠ ـ ٣٣٠ق.م.)

من العام ٩٠٠ حتى العام ٣٣٠ق.م. فإن الآرامية العامة التي حلت محل اللغة الأمورية في سورية مرت بثلاث مراحل متتالية: الآرامية القديمة والآرامية التقليدية والآرامية الأمبراطورية.

الآرامية القديمة.ـ إنها لغة النقوش العائدة إلى القرنين التاسع والثامن ق.م. والمكتوبة بالأبجدية الفينيقية.

إن مؤسسي السلالات الملكية الآرامية والمستقلة حديثاً، وبخاصة سلالات دمشق، كانوا يستخدمون لغتهم الخاصة لتدوين نقوشهم وقراراتهم الإدارية وأيضاً في علاقاتهم الدبلوماسية والتجارية بين مختلف الدول الآرامية الصغيرة.

وبما أن« الآراميين الرحل» لدى إستقرارهم في سورية لم يكونوا يملكون لغة مكتوبة أو لغة أدبية فقد إستعانوا بالأبجدية الفينيقية لكتابة لغتهم الخاصة. وما لبثت أن ظهرت لغة آرامية أدبية كان أثر اللغة الفينيقية بيّناً فيها، لكنها كانت آرامية تماماً. وقد كان القرن التاسع ق.م. هو العصر الذهبي للغة الآرامية الأولية والتي ستظل لغة واحدة حتى حوالي العام ٣٠٠ق.م.

الآرامية التقليدية ـ في أيام الأمبراطورية الأشورية(٧٥٠ ـ ٦١٢) والتي ظلت لغتها الرسمية هي الأكادية أو الأشورية ـ البابلية فإن الآرامية التقليدية

إنتشرت أكثر فأكثر في جميع مقاطعات تلك الأمبراطورية وحتى داخل أشور نفسها وذلك نتيجة أعمال السبي التي نقلت إلى أشور مجموعات كبيرة من الأشخاص الذين كانوا يتكلمون الآرامية. وفضلاً عن ذلك فإن الكتابة الآرامية التي كانت تدون بالأبجدية الفينيقية الأبسط والأسرع من الكتابة المسمارية الأشورية كان يفضلها التجار ويستخدمونها، وحتى كل الأشخاص الذين كانوا بحاجة إلى الكتابة.

وفي سورية ظلت الآرامية، وهي اللغة القومية منذ غزو الآراميين لذلك البلد، اللغة الرائجة أيام الأشوريين. وفي فلسطين بدأت اللغة الكنعانية أو العبرانية، وهي اللغة المحلية، تتراجع أمام الآرامية بعد تدمير مملكة السامرة الإسرائيلية وتحويلها إلى مقاطعة أشورية(٧٢٢). إن الأشوريين، حرصاً منهم على إزالة كل العوامل التي قد تؤدي إلى إحياء القومية، كانوا يشجعون إنتشار لغة« حيادية» سياسياً تحل محل مختلف اللغات القومية.

وفي أيام الإمبراطورية الكلدانية أو البابلية الجديدة(٦١٢ ـ ٥٣٩) فإن «الآرامية التقليدية» إزدادت أهمية وإنتشاراً. ولنذكر هنا أن الكلدان(كلدو) هم مجموعة قبائل آرامية أسست حوالي العام ٨٥٠ دولة في وادي الفرات الأسفل. وفي أيام الكلدان غدت اللغة الآرامية لغة دبلوماسية ودُوَلية بعدما حلت محل الأكادية أو البابلية التي كانت تقوم بهذا الدور منذ النصف الأول من الألف الثاني.

الآرامية لغة أمبراطورية.ـ كانت اللغة الآرامية قد أصبحت أيام الأمبراطورية الفارسية الأخمينيدية(٥٣٩ ـ ٣٣٠) اللغة الرسمية للدولة ولغة التبادلات التجارية والثقافية. وهذه اللغة الآرامية الأمبراطورية التي بقيت مشابهة للغة الآرامية العامة في العصور السابقة، اضيفت إلى اللغات المحلية في مختلف المرزبات من غير أن تزيلها وهي: اللغة الإيرانية في فارس والأشورية ـ البابلية في بلاد ما بين النهرين والفينيقية في لبنان والعبرانية في اليهودية والمصرية في وادي النيل« وبشكل ما كالإنكليزية اليوم في مختلف أراضي دول الكومنولث» (دوبون ـ سومر).

ب ـ الآرامية المتعددة اللهجات(بدءاً من ٣٣٠ق.م.)

بدءاً من غزو الإسكندر الأكبر(٣٣٠ق.م.) فإن اللغة الآرامية أو «الآرامية المشتركة»، والتي أضيفت إليها اليونانية كلغة رسمية ولغة ثقافة،

تجزأت إلى لغات عدة تقابل المناطق المختلفة التي كانت تُستخدم فيها. وقد حصل هذا للكتابة الآرامية أيضاً التي إحتفظت مع ذلك بشكلها الأبجدي. وفضلاً عن ذلك فإن اللغة الآرامية، ولدى إحتكاكها باللغة اليونانية، فإنها أخذت كلمات عدة من هذه اللغة.

أما اللغات ـ اللهجات الآرامية المتعددة فتنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين: الآرامية الغربية، في سورية وفلسطين، والآرامية الشرقية في بلاد ما بين النهرين. وهاتان المجموعتان سترسخان إبتداء من العهد المسيحي.

وتنتمي إلى اللغة الآرامية الغربية اللغات ـ اللهجات المحلية التدمرية والنبطية واليهودية-الآرامية الغربية والسامرية والآرامية التوراتية(المعروفة أحياناً بالكلدانية) والآرامية المسيحية ـ الفلسطينية، إلخ... كما تنتمي إلى اللغة الآرامية الشرقية اللغات ـ اللهجات اليهودية ـ البابلية والماندية والسريانية، إلخ...

الآرامية التوراتية تحل محل العبرانية في فلسطين.ـ وفي فلسطين حلت الآرامية التوراتية وهي لهجة غربية« أكثر فأكثر محل العبرانية كلغة دارجة. وأما العبرانية فإختفت من التداول ولم تبق إلا كلغة طقسية مقدسة أي لغة عبادة ولغة علمية يعتمدها الكتبة في مجال دراسة الشريعة الموسوية. وهكذا فإن التوراة نفسها تضم بعض المقاطع الآرامية التي تعود إلى تلك الفترة(حوالي العام ١٧٠ق.م.). فالآرامية التوراتية ـ كانوا يسمونها أيضاً بالكلدانية ـ كانت قد غدت لغة إقليمية هي الآرامية الفلسطينية.

وظلت الآرامية ردحاً طويلاً لغة مخاطبة في فلسطين. ففي زمن المسيح كانت اللغة الوحيدة التي يتكلمها غالبية الشعب.فالسيد المسيح والرسل تكلموا اللغة الآرامية وكانت قراءة الكتب المقدسة في كنس اليهود تتم باللغة الآرامية أيضاً»[41].

السريانية تخلف الفينيقية في لبنان. ـ «يطلق إسم السريانية على الآرامية الكنسية التي كانت تدرس في مدارس قدس ونصيبين وما زالت حتى اليوم تستخدم كلغة طقسية لدى بعض طوائف المسيحيين الشرقية»(رينان).

فالسريانية إذن تشكل اللغة المسيحية. وبرغم إنتمائها إلى المجموعة

41 Dupont-Sommer, *Les Araméens*, p. 99.

الآرامية الشرقية فإن هذه اللغة، وبفضل الوضع المتفوق الذي إكتسبته كنيسة قدسر بالنسبة إلى المسيحية في سورية، غدت اللغة الأدبية والكنسية المُدَرّسة في أديرة بلاد ما بين النهرين وسورية. وإثر هذا التوسع الذي شهدته اللغة السريانية صار مسيحيو سورية يدعون سرياناً سوريين تمييزاً عن مواطنيهم الذين ظلوا على وثنيتهم، وكانوا يعرفون بالآراميين.

في لبنان الذي لم يشهد هجرات آرامية إليه كما حصل في بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين فإن الفينيقية، وهي اللغة الشائعة في لبنان منذ مطلع الألف الثالث ق.م. إستمرت حتى القرن الأول من عهدنا الحالي.

إن اللغة الفينيقية، كما قلنا، تشكل مع العبرانية والمؤابية الفرع الكنعاني من لغات الشمال الغربي السامية. ولم تعرف اللغة الفينيقية تسميتها هذه إلا في وقت متأخر. وقد رأينا أن الفينيقيين كانوا يسمون أنفسهم بالكنعانيين. وكانوا أيضاً يسمون لغتهم بالإسم نفسه. حتى أن إسم العبرانية الذي يطلق على اللغة اليهودية لم يكن قد عرف إلا في القرن الثاني ب.م. فقد كان كتّاب العهد القديم يشيرون إلى اللغة العبرانية بعبارة« لغة كنعان» أو« اللغة اليهودية».

إن اللغة الكنعانية التي تطورت عبر العصور، هي كالآرامية، إنقسمت إلى لغات عديدة: الفينيقية في لبنان، العبرانية في فلسطين، المؤابية في شرق الأردن، البونية في أفريقيا الشمالية، إلخ... ومن جهة أخرى ففي فينيقيا نفسها كانت اللغة الفينيقية في بيبلوس تختلف عنها في صور وصيدا فضلاً عن فينيقية رأس شمرا شمال اللاذقية.

وفي أيام الممالك الهللينيستية(٣٣٠ ـ ٦٤ق.م.) فإن الآرامية بدأت تنتشر في لبنان لكن الفينيقية ظلت لغة المعاملات التجارية والعقود الرسمية حتى القرن الأول قبل المسيح.

وفي أيام الأمبراطورية الرومانية، في القرن الثاني من عهدنا الحالي، فإن الكتابات الميتولوجية على العملات لم تعد تكتب بالفينيقية بل باليونانية. وقد بطل إستعمال الفينيقية يومها كلغة تخاطب في لبنان وإستعيض عنها باللغة الآرامية في حين أن اليونانية كانت لغة الأدب والتجارة فيما كانت اللاتينية لغة الإدارة.

وقد أدى إنتشار المسيحية في القرن الثالث ب.م. وإنتصارها أيام حكم

قسطنطين أي في مطلع القرن الرابع لإنتشار اللغة الآرامية في لبنان وبخاصة اللغة السريانية كلغة دينية وأدبية.

٢ ـ القبطية لغة مصر قبل الإسلام

في حين كانت اللغة الآرامية عشية إنتشار الإسلام هي اللغة الشائعة في بلدان الهلال الخصيب، كانت اللغة القبطية وخلال ذلك العصر نفسه هي اللغة القومية الرائجة في مصر. وهذه اللغة القبطية، التي كانت اللغة القومية في وادي النيل بدءاً من العصر الذي إعتنق فيه المصريون المسيحية أي في منتصف القرن الثالث، ليست سوى اللغة المصرية القديمة في مرحلتها النهائية.

إن اللغة المصرية القديمة، التي عرفت منذ الألف الرابع وكانت لغة تخاطب في الدلتا وعلى إمتداد ضفتي نهر النيل، تنتمي، كما رأينا، إلى مجموعة اللغات المسماة حامية والتي فيها ملامح تقارب مع اللغات السامية. فاللغة المصرية القديمة، وعلى غرار الآرامية والفينيقية وسائر اللغات المعروفة، كما رأينا، لم تبق دائماً على حالها. فمنذ أصولها المعروفة وحتى زوالها فإن تلك اللغة شهدت مراحل تطور عديدة وإنقسمت إلى لهجات عدة. وقد رأينا أنه وفي العام ١٤٠٠ق.م. فإن اللغة المصرية القديمة التي تطورت كثيراً خلال الألفي سنة من وجودها التاريخي كانت قد أصبحت لغة ميتة وإستبدلت بلغة شعبية ولدت منها.

وفي نهاية مرحلة تطور ثانية فإن اللغة المصرية الجديدة الرائجة العام ١٤٠٠ زالت بدورها أمام لغة شعبية جديدة متولدة عنها هي الديموتية التي خلفتها حوالي مطلع القرن الثامن ق.م. وهناك مرحلة تطور أخيرة أدت في القرن الثالث من عهدنا إلى تحول الديموتية إلى« اللغة القبطية».

إن الكتابة المصرية، وأسوة باللغة، شهدت هي أيضاً مراحل تطور. وقد سبقت ثلاثة أنظمة رئيسية في الكتابة، خلال العصور، إختراع الكتابة القبطية. وتلك الكتابات الثلاث هي: النظام الهيروغليفي والنظام الهيراتيكي ثم الديموتي وكلها تصويرية تقريباً. وأما القبطية في المقابل فتكتب بناء على نظام أساسه الأبجدية اليونانية مضافة إليها سبعة حروف مستعارة من الكتابة الديموتية السريعة.

إن نهضة اللغة والثقافة الأصليتين أو القبطيتين بدءاً من القرن الثالث من

عهدنا كان مردها إلى التقدم الذي أحرزته المسيحية في مصر. فالإنجيل تم التبشير به باللغة المصرية للجماهير المصرية التي إحتفظت بالإضافة إلى لغتها الأصلية بوعيها شخصيتها القومية. كما ترجمت الكتب المقدسة المسيحية إلى القبطية وتم إبتكار الكتابة القبطية التي تستخدم الحروف اليونانية للتعبير عن اللغة القومية وفي تأليف الكتب الدينية وسير القديسين والقصص الدينية والأشعار إلخ... للمصريين بلغتهم الأم. وحوالي منتصف القرن الثالث كانت اللغة القبطية قد إستوفت تكوينها وإزدهى بها الأدب.

وقد ظهرت القبطية القائمة بذاتها كالمصرية القديمة أو الآرامية أو الفينيقية، كمجموعة لغات ـ لهجات أمكن إحصاء ست لهجات منها حالياً.

٣ ـ زوال اللغتين الآرامية والقبطية تدريجاً بعد إنتشار الإسلام

إن إنتشار الإسلام ولغته بدءاً من العام ٦٤٠ لم يؤدِ إلى زوال اللغتين الآرامية والقبطية فوراً ونهائياً. فهاتان اللغتان إستمرتا خلال قرون عدة في مناطقهما الخاصة حيث كان تعريب السكان أشد بطءاً من التحول إلى الإسلام. ومن جهة أخرى فإن اليونانية التي كانت لغة رسمية أيام الحكم البيزنطي ظلت في مقاطعتي سورية ومصر العربيتين الجديدتين تستخدم في الإدارة حتى حوالي العام ٧٠٠.

في الهلال الخصيب.ـ وفي الهلال الخصيب فإن« الآرامية الشرقية» وبخاصة السريانية إستمرت كلغة أدبية حتى القرن الثالث عشر. ويقول رينان إنه« وفي القرنين الثامن والتاسع فإن السريانية إكتسبت أهمية حقيقية في تاريخ الفكر الإنساني لإستخدامها كوسيط بين العلم اليوناني والعلم العربي وكأداة نقل بين تينك اللغتين... فمعظم ترجمات مؤلفات الكتاب اليونان إلى العربية تمت على يد مترجمين سريان وإنطلاقاً من ترجمات سريانية»[42]. وبدءاً من القرن الثالث عشر فإن اللغة العربية، التي أنهت غزو الشرق المتوسطي، تركت فيه بعض «المجموعات اللغوية» ومنها «الآرامية الشرقية» التي ظلت حتى يومنا هذا لغة طقسية لدى طوائف مسيحية عديدة ولغة حيّة لبضع مئات

42 E. Rènan, *Histoire générale et système comparé des langues sémitiques*, 1re partie, p. 265-266.

الآلاف من الأشخاص من الطوائف المسيحية أو اليهودية في منطقة طور عبدين(منطقة دجلة العليا) في ضواحي الموصل والضفة الشرقية لبحيرة أورميا.

وفي سورية «بقيت اللغة الآرامية متداولة في ثلاث قرى من سلسلة جبال لبنان الشرقية قرب دمشق: فسكان تلك القرى ما يزالون إلى اليوم يتكلمون لغة، برغم تطورها، ظلت إجمالاً اللغة نفسها التي كانت لغة التخاطب أيام المسيح»[43].

وفي لبنان إستمر الموارنة حتى القرن الخامس عشر بإستخدام اللغة السريانية كلغة دينية وشائعة إلى جانب إستخدامهم اللغة العربية في الوقت نفسه. والأناجيل كتبت بالسريانية مع ترجمات عربية بحروف سريانية (الكرشوني). وحوالي العام ١٧٠٠ والعام ١٨٠٠ كانت قرى مارونية عديدة تتكلم السريانية وبخاصة في لبنان الشمالي.

في وادي النيل.- وفي مصر ظلت اللغات ـ اللهجات القبطية المختلفة متداولة حتى مطلع القرن الحادي عشر. وحوالي ذلك العصر أصبحت اللهجة البحيرية اللغة الرسمية للكنيسة القبطية وتوصلت خلال القرن التالي أن تفرض نفسها كلغة أدبية، على جميع مسيحيي وادي النيل. حوالي نهاية القرن الثاني عشر كان معظم المصريين قد إعتنقوا الإسلام وصارت اللغة العربية هي اللغة القومية في مصر كلها. وبدءاً من ذلك العصر باتت اللغة القبطية، التي أصبحت ميتة عملياً كلغة تخاطب، اللغة الطقسية لدى الكنيسة المصرية وسوف تظل كذلك حتى اليوم. ولم تعد كلمة قبطي تطلق على العرق بل أصبحت تطلق على الدين وستطلق بعد ذلك التاريخ على المصريين المسيحيين وحدهم وهم السلالة الأصلية من مصريي الأزمنة الفرعونية. وما يزال الأقباط المعروفون« بالأرثوذكس» يبشرون حتى اليوم بالمونوفيزية التي لا تنسب إلى المسيح إلا طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية.

٤ ـ خاتمة

إن الشرق المتوسطي، والذي سيعرف فيما بعد بالشرق العربي، كان عشية الإسلام يتألف من ثلاث مجموعات لغوية كبرى قريبة أو متشابهة: وهي

43 A. Dupont-Sommer, *op. cit.*, p. 100.

المجموعة السامية الآرامية في الهلال الخصيب والمجموعة السامية العربية في شبه الجزيرة العربية والمجموعة الحامية القبطية في وادي النيل. وإن المجموعتين الأوليين تنتميان إلى أسرة اللغات السامية فيما المجموعة الثالثة أي القبطية تنتمي إلى أسرة اللغات الحامية.

منذ القدم، وفي هذه المنطقة من الشرق الأدنى كما رأينا، كانت اللغات واللهجات السامية والحامية(الكنعانية، الأمورية، الأشورية، البابلية، الأكادية، الفينيقية، العبرانية، الآرامية، المصرية القديمة، الديموتية، القبطية، العربية، إلخ..) تلي بعضها بعضاً أو يحل بعضها محل بعض عبر العصور. وفي المقابل، وفي تلك المنطقة نفسها، فإن اللغات غير السامية(الحثية الفارسية، اليونانية، اللاتينية، التركية، إلخ..) ظلت دائماً طافية ولم تتمكن أبداً من النفاذ في أوساط الجماهير الشعبية التي حافظت بإستمرار على لغاتها وثقافتها الأهلية الأصلية السامية منها أو الحامية.

إن هذه« الثابتة» اللغوية التي يسجلها تاريخ عمره خمسة آلاف سنة تسمح لنا بإثبات نظرية علمية مفادها« أن لكل عرق فلسفته اللغوية الخاصة به». فنحن نعلم أن« هناك صلة ما بين عقلية شعب ما ولغته»، وأن طبع أمة ما... إنما ينعكس في لغتها» وأن الفكر والنواحي المتفوقة من الحياة النفسية إنما هي متصلة باللغة».

ومن المهم التذكير هنا أن كلمة« عرق» لا تعني مجموعة بشرية ما يتمتع أفرادها بصفات جسدية متشابهة أو يتحدرون من جد واحد. إن هذا النوع من الأعراق قد ولّى ولم يعد موجوداً منذ أزمنة ما قبل التاريخ إثر إمتزاج الأعراق الذي تسبب به إنتقال المجموعات البشرية وإختلاطها بعضها ببعض. وإن ما نعنيه اليوم بكلمة عرق هو على الأصح مجموعات مركبة(متعددة العناصر) من مزائج عرقية مستقرة والتي تبوتق أفرادها من الناحية الجسدية وبخاصة النفسية بفعل مشترك أسهم فيه عنصر الوراثة والبيئة الجغرافية. وهم يشكلون ما يسمى بالعرق اللغوي والأسرة الثقافية وهي تتمتع بطباع خاصة بها ويتسم أفرادها «بمشابهات محتملة».

إن الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ووادي النيل يكوّنون مساحة جغرافية خاصة تضم صحارى قاحلة وواحات مزروعة، وتشكل فيها المجموعات الجغرافية المتنوعة من حضر وبدو، وقد طبعتها البيئة الطبيعية

بسمة مشتركة، أسرة عرقية، أو ثقافية واسعة وعرقاً لغوياً،وتتصف طبائعها النفسية والخلقية في قسماتها الكبرى بتقارب ما. ومنذ فجر التاريخ، كما رأينا، فإن شعوب الهلال الخصيب كانت وظلت سامية من حيث لغتها وثقافتها بفعل الهجرات والتسللات السامية التي كانت تخرج من شبه الجزيرة العربية وتدخل بإستمرار إلى البلدان الحضرية. وأما بالنسبة إلى حاميي وادي النيل فإن قرابة عرقهم مع عرق ساميي الشرق هي مقبولة عامة من العلماء المعاصرين ويثبتها التاريخ.

ونحن نعلم بالفعل أن علماء اللغة يُقرون اليوم بالقربى الأصلية بين اللغة المصرية القديمة واللغة السامية ويضمون في أسرة لغوية واحدة هي اللغة المسماة السامية ـ الحامية مجموع اللغات القديمة التي تنتشر في الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين وسورية ومصر وشمال أفريقيا حتى المغرب على الأطلسي. ونعلم من جهة أخرى أن الأساطير والمعتقدات السامية منذ القدم إستقرت في مصر بفعل الهجرات الآسيوية وأن اللغات السامية والدم السامي أسهما في تشكيل لغة مصر وشعبها في العهد الإنيوليتي.

ولنذكر أخيراً أن القائمة السلالية الواردة في العهد القديم من التوراة تعزو كنعاني لبنان(الفينيقيين) وكنعاني فلسطين وهم ساميو اللغة، إلى العرق الحامي المصري. وهذا الرأي يستند بالتأكيد على ذكريات مشوهة إلى حد ما حفظت حول تلك الهجرات العديدة. وأغلب الظن أن كاتب الإصحاح العاشر من سفر التكوين والذي جعل من الكنعانيين إخوة المصريين كان يعرف ذينك الشعبين أفضل منا وكانت لديه أسباب جعلته يجزم بهذه القرابة.

لكن القرابة أو الوحدة العرقية واللغوية والثقافية وحتى الدينية هي، كما قلنا، غير كافية وحدها لإيجاد وحدة سياسية أو قومية. إن جل ما ينتج عنها غالباً هي وحدة روحية وعاطفية تشجع الوحدة السياسية غير أنها لا تفرضها. فالكائنات« المتشابهة» ليست بالضرورة كائنات« موحَّدة». ذلك أنه في حين تسهم المنطقة الجغرافية في تشكيل أسرة إثنية أو عرق إلا أن التقسيمات الجغرافية لتلك المنطقة تقسم بدورها، تلك الأسرة أو العرق إلى مجموعات إجتماعية عدة(أمم، شعوب، قبائل) لكل منها خاصيتها الجماعية وشخصيتها الخاصة، وكل منها تحركه مشاعر إقليمية وأفكار إستقلالية. فالوحدة السياسية لتلك المجموعات المختلفة أو الشعوب لا تتحقق عامة إلا بالإختيار الحر من قبل

أناسها أو بالقوة، وسرعان ما تنحل بمجرد زوال العوامل التي أدت إلى قيامها.

إن الحقائق التاريخية السابقة، والتي يؤكدها تطور المجتمعات الشرقية منذ فجر التاريخ وخلال آلاف السنين، هي مفيدة لنا من كل الوجوه.

أولاً إن القرابة اللغوية والثقافية بين شعوب شبه الجزيرة العربية وشعوب الهلال الخصيب ووادي النيل توضح لنا السهولة النسبية التي إنتشر بها دين ساميي الجزيرة العربية ولغتهم في بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر وشمال أفريقيا كما توضح لنا أيضاً سرّ رفض إيران غير السامية، والتي قبلت الإسلام بعد تكييفه مع طبعها الإيراني، للغة السامية ـ العربية الغريبة عن تعبير حياتها النفسية.

ومن جهة أخرى فإن التجزئة الجغرافية للشرق العربي تجعلنا ندرك سر تداعي أمبراطورية الخلفاء العرب الواسعة بمجرد إنتهاء الفتوحات العسكرية. ومن المفيد أن نذكر هنا بتلك السُنّة التاريخية القائلة بإن كل أمبراطورية كبرى، مؤلفة من مناطق متباينة تميل في النهاية إلى التفكك لتعود إلى تقسيماتها الجغرافية الطبيعية التي هي الأطر الطبيعية للأمم النظامية أو العضوية.

إن بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر، التي أسلمت وتعربت إثر الفتح العربي، لن تلبث أن تستعيد شخصيتها التاريخية الخاصة بها فضلاً عن تنافساتها التقليدية والقديمة العهد التي عرفتها في أزمنة ما قبل الإسلام.